أَمَانُوس



حنان لاشين



إهداء

إلى الجناحين

إن كُنت تتابع معنا سلسلة مملكة البلاغة ووصلت للجزء الثالث فحتمًا أنت مُحارب، أكاد أنظر إلى عينيك وأنت تقرأ كلماتي، أرى الشّغف والشوق إلى مغامرة جديدة يطلّ منهما، فمرحبًا بك. ما زالت مملكة البلاغة تستدعي المحاربين للدفاع عن الكتب، وعن القيم، وعن طُهر الكلمات التي دوّنت بين دفّتي تلك الكتب، والمحاربون يتهيئون هنا وهناك، وفي لحظة فارقة، وفجأة، سيظهر لك الرّمز كما ظهر لغيرك، وستدور الكُتب حولك في الهواء، وسترى صورتك في كتاب خلت صفحاته من الكلمات، سيقشعرّ بدنك، وستتسارع دقّات قلبك، وستركض نحو أبيك أو جدّك وأنت تحمل الكتاب الذي قام باختيارك، أنت بالذّات، وسيزورك صقر مهيب يخفق بجناحيه ليحملك إلى هناك، ستفاجأ أنّه يُحدّثك بلغة البشر، فلا تقلق عندما يصعد فوق رأسك، ولا تجزع عندما يغطي عينيك بريش جناحيه، فقد حان الوقت، وسترحل إلى «مملكة البلاغة»، حيث الضباب يلف كلّ شيء هناك، ستشعر دائمًا بالبرودة، الطيور هناك يغطيها ريشٌ غريب الشكل واللون، ستجدها أكبر حجمًا مما هي عليه هنا، الأشخاص غريبو الأطوار والهيئة والملابس، وكأنّ كلَّ مجموعة منهم أتت من حقبة زمنية مختلفة، وهناك من جمعهم فجأة من أزمنتهم أو استدعاهم لمهمة ما، كما ستنتقل أنت إلى هناك، فهل أنت مستعد؟

أطلق لخيالك العنان، وحلّق معنا في رحاب تلك المملكة العجيبة، ودعني أكشف لك أسرارًا أخرى عن عوالمها التي تضجّ بالمغامرات، ولكن قبل أن نبدأ، دعني أحذّرك، عندما تقتني كتابًا عتيقًا أوراقه مصفرّة وباهتة، لا تُردد الطلاسم المنقوشة بالحبر الأحمر على هوامشه أبدًا، وخاصّة إن كُنت وحدك!

د.حنان لاشين

مملكة البلاغة

قبلة من شَمس الصّباح على رؤوس الجبال كانت كافية لتُلبسها تيجانًا من فضّة، غابة «البيلسان» تبدو فاتنة وكأنّها عروس تستعدّ للزفاف، ألقت أشعة الشّمس على ردائها السندسي انعكاسات ذهبيّة خلّابة، نثرت الفراشات أجنحتها الملوّنة على أطراف الرّداء الأخضر، وبدأ حفل الزّفاف. تداخلت شقشقة العصافير مع صوت هدير البحر القريب، فانطلقت الغيمات ترقص بغنج على صدر السّماء، مال سعف النّخيل الأخضر بدلال وكأنّه يلوّح للحاضرين، واستدارت زهرات دوّار الشّمس في آن واحد وكأنهن يراقبن فارس الأحلام وهو يتبختر مقتربًا من عروسه، وبرزت الورود الحمراء بأوراقها المغلقة وكأنّها تمنح النّاظرين قبلة من ثغرها الفتّان قبل أن تتفتّح أوراقها بدلال، اهتزّت أشجار الياسمين فهطل بعضه برشاقة على الأرض ليفرش الطريق، مرّ الفارس متعلّقًا بوشائجه، ولم يلتفت، كان واثق الخطى، لكنّه كثير النسيان، غاب عن عينيها، فعادت تنتظره على استحياء. على حين غفلة حجبت غيمة من الغيمات العالقة في السماء وجه الشّمس، فانطفأ البريق شيئًا ما، وارتعش خيط رفيع من لُجين في حضن السّماء، إنّه البرق يضوي على استحياء، أرسلت السماء ماءها الهتون بحنوّ، فانسكبت ألوان الطيف السّبعة على جدران قصور «مملكة البلاغة»، وبللت زخّات المطر أسوار القلاع، حتى البراكين سعلت بصوت خافت لتبعثر دخانها قبل أن يزداد المطر، ما زال النّهر الفيروزي يجري بمائه الريّان الأخضر، وما زالت زُمرة الخيول تركض

في تناغم بديع، حتّى أشجار الغابة المسحورة ما زالت تصدر أنينًا كلّما حنّت للذكريات. هنا وعلى هذه الأرض تدور الرّياح، تحمل الأخبار، وتنقل الأسرار، وتفتّش عن المُحاربين، وعلى ارتفاع شاهق تدور الصّقور، ضربة بجناحين قد تعني الكثير لمحارب، وضربة أخرى قد تُنهي رحلته، وما حياتنا إلّا أجنحة، تخفق وتسكن، تتشابك وتنفصل، تقترب وتبتعد. أبيض، أسود، أصهب، أشقر، رغم اختلاف ألوانها لن تختلف، تتأرجح فوق التلال، وصافّات حول القمم، ثُمّ يقبضن ما بسطن أعلى القصور، وقد يتركن البحر رهوًا ويلجأن للغابات، تحمل الخير تارة، أو تحمل الشرّ تارة، وقد تحمل الخير على جناح، والشرّ على الآخر، جناح ملائكي، وآخر شيطانيّ، فيطير الضدّان معًا. وتبقى لحظة الانطلاق هي الأصعب.

وفجأة! انبثق صوت الرّعد يزلزل الأجواء، شقّ البرق صفحة السّماء بقسوة، وهبّت عاصفة شديدة أزاحت الغيمات بعنفوان، ثار البحر اللازورديّ كالبركان، وعلا موجه كالجبال، وبدأ المطر يهطل بغزارة ويغرق كلّ شيء، سكن أهل مملكة البلاغة، وغلّقت الأبواب، ودوّى صوت غريب ارتجّت له الأجواء...

برز «الرّمادي» بلونه الأردوازي بين الصفوف، كان يضمّ جناحيه المبرقشين وكأنّه يتلفّع بعباءة صوفية ويقف في خشوع، عيناه الواسعتان كانتا تبرقان كقطعتين من الألماس كلّما أضاءت السماء بأنوار البروق المتتالية، وكانت الصقور تفد من كلّ حدب وصوب تجاه حديقة المكتبة العظمى، بينما وقف أمامهم حرّاس المكتبة بلحاهم البيضاء وقاماتهم الطّويلة تحت ماء المطر في كوكبة مهيبة ينتظرون وصول بقيّة الطيور، اصطفّت الصقور المبتلّة بالماء كالبنيان المرصوص، وقبض كلّ منهم جناحيه وألصقهما بجسده، توافدت الهداهد، فخفق قلب «الرّماديّ»، التقت عيناه بعيني الهدهد «بُرهان»، هزّ كلّ منهما رأسه للآخر في تحيّة صامته، تلك الإيماءة البسيطة كانت تشي بالكثير من المعاني، وقفا

ينصتان إلى السيّد «وضّاح»، الذي أزاح القلنسوة عن رأسه، وفتح فمه بعد صمت طويل ليبدأ حديثه، دوّى صوته المهيب بالكلمات، فاشرأبت الأعناق، وشخصت العيون تجاهه، هناك خطب جلل، ولا بدّ من الحذر!

1

«مِسكة»

أصوات غامضة تنبعث من الشقّة رقم عشرة القابعة بالطابق الخامس من البناية العتيقة التي تتوسّط شَارع التحرير، القطة السوداء بالداخل لا تتوقف عن المواء، الجارة الحسناء القاطنة في الشقة المقابلة تقول إنّها سمعت جلبة وصرخات غريبة أخافتها خلال الليلة الماضية، لكنها لم تسأل عن جارتها «مسْكة» والتي لا تعرف عنها شيئًا سوى اسمها الأوّل، فقد انتقلت تلك الشابَة مع زوجها حديثًا للبناية منذ فترة وجيزة، حارس البناية بدأ يشعر بالقلق عندما أخبرته تلك الشّابة عمّا سمعته، حاول أن يهاتف السيّدة «مسكة» مرارًا وتكرارًا حتى وهو يقف أمام باب شقّتها، آخر حوار بينهما كَان منذ عدّة أيام حول تلك الرسالة التي أكّدت عليه أن يرسلها بالبريد، وقد فعل. كان يسمع صوت رنين الهاتف وهو يتصاعد، وينتظر أمام الباب حتى ينقطع صوته، بعد ساعات حاول الاتصال مرّة أخرى لكنّ الهاتف توقف عن الرنين وكأنّها أغلقته فجأة! صارت أجواء البناية تعبق برائحة غريبة تشبه رائحة الجلد المحترق، والقطّة في الداخل تقترب من الباب وتنبش بمخالبها محاولة فتحه وهي تصدر أصواتًا مُخيفة، قرر سكان البناية استدعاء الشرطة، وبالفعل وصل الضابط المكلّف بالمهمة ومعه بعض أعضاء الشرطة وتم كسر الباب واقتحام الشقة. فور أن فُتح الباب قفزت القطّة السوداء في وجه

الشرطي الذي كسر القفل فأفزعته، انطلقت هاربة كأنّها كانت تترقب تلك اللحظة، أربكتهم جميعًا وهي تركض على الدرج، كانت الشّقة ساكنة ومهيبة كالمقبرة، تجولوا بحذرٍ في الغرفات التي بعثرت القطة القمامة على أرضها بحثًا عن شيء تأكله، في غرفة المكتب كانت «مسكة» ممددةً على الأرض وعيناها مفتوحتان على وسعهما، كان وجهها جَامدًا تعلوه مسحة رعب وكأنّها رأت ما أفزعها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، بجوارها كان هناك كتاب مفتوح على صفحة محددة، على هامشها نُقشت كلمات غريبة بحبر أحمر كرزي، كانت الكلمات مكررةً ثلاث مرّات، يبدو أنّه كتابٌ عتيق، فالأوراق مصفَرَّة وباهتة، على الدرج وحول البناية تجمهر أهل الحيّ يسألون عمّا حدث، وسط تلك الوجوه التي كان الفضول يطلُّ من أعينها كان وجه «يُوسف» ووجه «أنس» الأكثر قلقًا، فقد وصلت رسالة «مسكة» لـ«يُوسف» بالبريد منذ ساعات، وفور قراءتها انطلق مع «أنس» تجَاه بيت «مِسكة»، لكنّ أقدار الله سبقتهما إليها.

رسالة «مِسكة»

عزيزي «يُوسف»، لعلّك الآن أكثر سعادة من ذي قبل، ولعلّك تخليت عن أحزانك مع معطفك الذي منحته لـ«مُوراي» قبل أن تترك البستان، ووجدت الآن سعادتك مع حبيبتك «حبيبة»، وأمّا بعد:

لعلّك تتعجّب من اسمي المدوّن على المظروف، نعم؛ أنا «مسكة» تلك التي التقيت بها هناك، لكنني لست هي! من حقّك أن ترفعَ حاجبيك وتتعجّب من هذا التناقض، ولكن اتركني أخبرك بما حدث بالتفصيل.

منذ عامين، خرجت من بيتي على عجل، كان الشارع ضيّقًا تفوح منه رائحة الرطوبة، الوجوه الواجمة تراقبني بفضول شديد، حالة من الغموض

تظلل جدران الأبنية حولي، قُبلة حانية من شمس الغروب كانت كافية لتلبس قمم البنايات تيجانًا بلون الشّفق، رفعتُ رأسي وجُلت بناظري في السماء أراقب ندف السحاب الهشّة المتناثرة هنا وهناك، كُنّا في ديسمبر وكُنت أشعر بالبرد، لكنني أحسست فجأة بحرارة شديدة تجتاح جسدي كلّه فور أن انعطف بي المسار تجاه بيت هذا الشاب غريب الأطوار، حتى رذاذ المطر الخفيف الذي بدأ يغطى زجاج السيارات القديمة حولي لم يخفف أبدًا عنّي! لم يكُن من السهل عليّ زيارة هذا الشّاب وحدي بينما كُنت أعدُّ لروايتي الجديدة، عندما قررت أن أكتب رواية شائقة تجذب الانتباه، فالجيل الحالي يهتم بأدب الرعب، ولن يحدّثني عن الجنّ وتلك الأمور الغامضة غير هذا الشّاب، فقد عرّفني عليه صاحب متجر الكتب المستعملة الذي كُنت أزوره من آن لآخر لأفتّش عن الكتب العتيقة، التي يتخلّص منها البعض وهم لا يعرفون قدرها فيلقونها في القمامة أو يبيعونها كخردة لا قيمة لها، زاهدين فيها، ولو أدركوا قيمتها الحقيقية لَمَا تخلّوا عنها أبدًا، وكُنت أعثر لديه على كنوز! فاقتنيتها بسعر زهيد. في إحدى زياراتي له كُنت أفتّش عن كتب تتحدّث عن خوارق الطبيعة وفنون السحر، وأسرار عالم الجنّ، وقضيت وقتًا طويلًا لديه حتى أنّه أحضر لي مقعدًا خشبيًا عتيقًا وفنجانًا من القهوة، فارتديت عويناتي وجلست أبحث بهدوء ورويّة، عثرت على كتاب عجيب، كان عنوانه أكثر ما أثار تعجّبي، حتى أنني أجفلت من مجرّد ترديدي لعنوانه بلساني» القَلْقَدِيس«! مررت بأناملي على اسمه المنقوش ببروز فوق غلافه الجلديّ بلونه الذي يُشبه الصّدأ، وغرقت في القراءة حتى أنني لم ألحظ هذا الشاب النحيف ذا العينين الجاحظتين، الذي كان يحدّق في كومة الكتب التي جمعتها ويقرأ عناوينها بتركيز شديد وأنا أنفض عنها التراب، اقترب بحذر وسألني بفضول:

- عفوًا سيّدتي، هل ستشترين هذه الكُتب؟

-نعم.

-وكتاب «القَلْقَدِيس» أيضًا؟

-نعم!

هزّ رأسه وتراجع للخلف خطوة، وسُرعان ما عاد يخطوها للأمام مرّة أخرى ليسألني وهو يغضن جبينه:

-هل تعدّين لرسالة الدكتوراة الخاصّة بك؟

ثُمّ رفع حاجبيه الكثيفين وأردف باهتمام:

-أستطيع أن أساعدك، فهذه العناوين بالذّات تهمّني ولديّ في مكتبتي المتواضعة الكثير من الكتب تخصّ تلك الأمور، في الحقيقة أنا شغوف بهذا النوع من الكتب.

رفعت رأسي فالتقت عيناي بعينيه المريبتين، كان يرتدي قلادة على شكل جمجمة، أمّا رأسه فكانت تحمل شعرًا كثيفًا ومجعدًا يشبه الفرشاة، بدا لي وكأنّه لم يزر الحلاق منذ شهور، وكان لون بشرته مشربًا بصفرة غريبة! لفت نظري هذا الوشم الغريب الذي كان منقوشًا على الجانب الأيمن من عنقه، لا أدري لماذا خفت منه، ازدردت ريقي وحاولت إخفاء اضطرابي وقلت بوضوح:

-أنا كاتبة، وأعدّ لروايتي الجديدة.

زمّ شفتيه وضوى في عينيه بريقٌ غريب، ثُمّ أطلّت على وجهه ابتسامة مريبة لتكشف اللثام عن أسنانه الصفراء المعوجّة وقال:

-رواية رعب؟

قُلت بتوتّر:

-تقريبًا.

-ما اسمك يا سيّدتي؟

-«مِسكة»

لوى شفتيه مستنكرًا وقال:

-لم أسمع عنك من قبل!

-لأنني أكتب باسم مستعار.

قال بنَزَق:

-تخشين مواجهة القراء إذًا!

ترددتُ هنيهة بعد أن استفزّتني كلماته، كدت أقول له شيئًا ما يُخرسه، لكنني اكتفيت بالصمت، عاد يسألني وهو يدور حول مقعدي بشكل مريب:

-ما اسمك المستعار؟ لعلّي قرأت لكِ! فأنا من عشّاق أدب الرّعب!

لم أجبه، وتصنّعت الاشتغال بما بين يديّ من الكتب وتجاهلته، ابتعد عني وبدأ يثرثر مع صاحب المتجر الذي بدا لي وكأنّه يعرفه جيّدًا، كان يبحث عن كتاب محدد، ووجده بالفعل، التقط هذا الشّاب الكتاب ونقّد صاحب المتجر ثمنه وخرج بعد أن رماني بنظرة ناقمة تصحبها ابتسامة خبيثة! ربّما لأنني تجاهلته.

جلست أفتش عن الجزء الأوّل من كتاب «القَلَقَديس»الذي بين يديّ، فهو يبدو شيقًا للغاية، ولا بدّ أن الجزء الأوّل أكثَر تشويقًا منه، كان الكتاب يتحدّث عن السحر وخوارق الطبيعة، وقصص غامضة حدثت بالفعل ولم يجد أحد لها تفسيرًا حتى الآن، سألت البائع عن الجزء الآخر الذي ذّكر في الكتاب أنّ اسمه «القُلُقُطار»، فالتقط الكتاب وقلّبه بين يديه وقال بصوته المتحشرج:

-أظنّ «القُلُقُطار» عند «حسّان»!

-ومن هو «حسّان»؟

قال:

-هذا الشّاب الذي كان هنا منذ قليل يا سيّدتي، كان والده -رحمه الله- صديقًا عزيزًا لي، وهو يهتم بتلك الأمور، لو قُمتِ بزيارة مكتبته ستجدين حتمًا ما يعينك على كتابة روايتك..

طالعته متعجبةً فهزّ رأسه وقال على استحياء:

-اعذريني فلقد سمعتكما وأنتما تتحدّثان، لم أكن على علم بأنّك كاتبة روائية!

قلت بثقة:

-لا..لا أرغب في زيارة مكتبته.

هز البائع كتفيه وقال:

-كما تحبين!

-لكنك ستحضر لي كتاب «القُلقُطار» منه..أليس كذلك؟

هزّ كتفيه وهو يقول:

-ربّما!

-ومن فضلك، لا تخبره أن هذا الكتاب لي.

-حسنًا سأحاول، وعلى كل حال هو سيعود كعادته بعد يوم أو يومين.

-سأترك لك رقم هاتفي، ولو وجدت الكتاب عنده سأشتريه منه بأيّ سعر يطلبه.

خرجت من متجر الكتب وخلفي صاحب المتجر الذي صمم على حمل الكتب التي اشتريتها منه ليساعدني حتى ركبت في سيارة أجرة، فلقد منحته مبلغًا مرضيًا من المال وقد سَرّهُ هذا للغاية.

عدت إلى بيتي أحمل الكثير من الكتب، ومرّت أيّام كُنت فيها غارقة في القراءة، عندما رنّ هاتفي فأجبت ليأتي صوت صاحب متجر الكتب المتحشرج على الطرف الآخر، والذي أخبرني أنّ كتاب «القُلقُطار» موجود

بالفعل عند «حسّان»، وأنّه أدرك أنني طلبت هذا الكتاب دون أن يخبره، وهو يدعوني لزيارته والاطلاع على ما لديه من الكُتب، قلت بعصبية لم أنجح في إخفائها:

-قُلت لك أنني لا أريد زيارة هذا الشاب غريب الأطوار!

قال بضيق:

-وهو يرفض بيع كتاب «القُلْقُطار»، وسيسمح لك باستعارته فقط لفترة وجيزة، ولكن بشرط!

-وما هو هذا الشرط؟

-أن تستبدليه معه فهو أيضًا يُريد الجزء الذي تملكينه، لقد طلب كتاب «القَلْقَدِيس»!

استشطت غضبًا وقلت:

-هل من الممكن الحصول على نسخة أخرى؟ قد تجدها عند رفاقك من أصحاب متاجر الكتب الأخرى.

قال بخفوت:

-في الحقيقة نحن لا نملك قوائمَ بأسماء تلك الكتب.

ثُم أضاف بتهكّم:

- نحن نشتريها بالكيلو يا سيدتي، يصعب عليّ البحث عن الكتاب، كما أنني لا أحب القراءة!

أزعجني ردّه فقلت باستنكار:

-وتبيع الكتب!

ردّ بحنق قائلًا:

- لقمة العيش يا سيّدتي!

ثُمّ أردف متسائلًا:

-لماذا ترفضين زيارته؟ فضلًا قومي بهذا جبرًا لخاطره، لا يغرّنك مظهره، فهو شابٌ مثقف جدًا وزيارتك ستُسعد والدته القعيدة، فهو يخدمها بنفسه ويلازمها طويلا ويتسلّى بقراءة الكُتب.

كدت أرد عليه بالرفض، لكنّ الكلمات تلاشت على شفتيّ، فقد تأثّرت لحالهما وقررت زيارتهما بعد أن أخبرني بظروفهما فرقّ قلبي لهما.

نسيت أن أخبرك يا «يُوسف»، أنا وحيدة للغاية، وحدتي لا تشبه أبدًا وحدتك التي كُنت تعيشها قبل لقائك بـ«حبيبة»، بعد وفاة زوجي منذ سنوات لم يبق لي إلّا الكُتب، فقد هاجر شقيقي الوحيد إلى «كندا» قبل زواجي حتى أنّه لم يلتق أبدًا بزوجي، لم أُرزق بذرية تؤنسني، كُنت في أمس الحاجة لمن يحتضنني ويربّت على كتفي، فقد كان جرح قلبي عميقًا للغاية، لجأت للكتابة، فهي ملاذي الوحيد، وقد أنقذتني مما غرقت فيه من هموم. كنت أقضي الكثير من الوقت في الخربشة على الورق، تلك النّصوص تُمثّلني، تحكيني كقصّة بائسة، ربّما أنا بطلتها الوحيدة! كُنت أستمتع بردود أفعال القرّاء، أكتب، وأنتظرهم ليُخبروني بآرائهم، ثُمّ أكتب، وأنتظرهم! أتدري؟ حتّى الخيال، عندما أكتبه يصدقونه رغم أنّهم يعلمون منذ السطر الأوّل في الرّواية أنّها خيالٌ في خيال، فهم يصدّقون هذا الخيال، ويغرقون فيه، ويعودون لِسؤالي... «هل هذه القصّة مقتبسة من أحداث واقعية أم لا؟»، وعندما أُجيبهم...«لا، وهذه الأحداث من خيالي»، يقولون: «لا نُصدّقك، هذه قصّة حقيقية، نحن نعرف هذا جيدًا!»

المهم، زُرت «حسّان» هذا بالفعل، كانت شقّته في الدور الأخير من البناية العتيقة التي خشيت أن تسقط وأنا أصعد درجها الذي كان يهتزّ من وقع خطواتي الضعيفة، مرّت قطة سوداء بجواري فجأة ففزعت واقشعرّ بدني، لن أنسى أبدًا عينيها الخضراوين وهي تلمع وسط عتمة

الدّرج، رأيت أمّ «حسّان»، لكنّها لم تتحدّث إلّا لردّ السّلام، لا أدري لماذا كان الخوف يسكن عينيها، حدّثني «حسّان» عن مكتبته وكتبه، كان ثرثارًا ولا يترك لمن أمامه الفرصة لكي يتحدّث، فجلست أنصت إليه، ولمّا شعرت أنّه انتهى وأفرغ ما بجعبته، طلبت الكتاب لكي أنصرف، وأعارني كتاب «القُلْقُطار»[١] بالفعل، ولكن بعد أن تأكّد أن كتاب «القَلْقَديس»[٢] بين يديه، كان يصرّ على هذا بشكل غريب ولافت للنظر، وقد أخبرني أن «القُلْقُطار» و«القَلْقَدِيس» لا يجتمعان أبدًا في مكان واحد! فرأيت هذا التصرف حرصًا منه على كتابه الذي سآخذه، كي يتأكّد أنني سأعيده في وقت لاحقٍ، فقبلت طلبه ليطمئن قلبه.

عُدت لبيتي وبدأت أقرأ «القُلْقُطار»،كان الكتاب غريبًا وغامضًا، حتى ملمس جلدته كان يشبه ملمس الجلد الحيّ، ورائحة أوراقه تشبه رائحة أنفاس البشر، شعرت وكأنّه كائن حيّ ينبض بالحياة ويحاول التواصل معي، لكنّه كائن خبيث، كنت أشعر بانقباض في صدري كلّما لامسته أو قرأتُ فيه، كدت أتركه وألغي فكرة كتابة روايتي الجديدة عن الرعب، حاولت النهوض وإغلاقه، لكنني وجدت نفسي أكمل القراءة رغم أنفي، شيءٌ ما يجذبني إليه كالمغناطيس، لقد أسرت!

قضيت ساعات طويلة أتصفحه، حتى عثرت على كلمات منقوشة على هامش أحد أوراقه بخطّ صغير جدًا وبحبر أحمر كرزي، كانت كلمات غريبة مكررة ثلاث مرّات، اقتربت من الصفحة وحدّقت في حروف الكلمات لأتمكن من قراءتها، وللأسف رددتها بصوت مسموع، فاهتزّت الأرض تحت أقدامي، وتلاعبت أمام عيني فجوة سوداء معلّقة في الهواء، ثُمّ ظهر لي فجأة هذا المخلوق المخيف في غرفتي بقلب بيتي الذي شعرت للحظات أنّه تحول إلى فضاءٍ واسع، كان هذا الكائن البهيمي ضخمًا

---

(١) «القُلْقُطار» هو الزّاج الأصفر.

(٢) و«القَلْقَدِيس» هو الزّاج الأبيض، والزّاجات من الأملاح الكبريتية.

وطويلًا، ذا وجه ملامحُه تنمّ عن قسوة شديدة، أشار تجاهي وردد كلمات لم أفهم كًنهها بصوته المخيف فابتلعتني الفجوة، وشعرت أنني أنزلق في دهليز حلزوني طويل! ووجدت نفسي بمملكة البلاغة التي لم أكن أعرفها في البداية، وقفت على قدميّ وبدأت أسير في الطريق لبيت «مَيسان» وأطرق بابها وأقول أشياء وأفعل أمورًا، وكأنّ هناك من يملي علي ما أقوله وما أفعله ويهمس في أذني ويدلّني على الطريق، كُنت مسلوبة الإرادة، وكأنني قطعة من «الشطرنج» يحرّكها أحدهم وينقلها من مكان لآخر.

عثرت هناك على كتاب للسحر كان ملفوفًا بخرقة بالية ومدفونًا في حفرة تحت فراش بطلة رواياتك «ميسان»، والذي عثرت هي عليه في درب من «دروب أوبال» التي كانت قد سَلكَتها وكتبت أنت عنها، كانت تخفيه عن بناتها خوفًا عليهن، قُمت بتصفّحه ووجدتني أعي وأفهم ما فيه وصرت ألقّن بناتها ما فيه حرفًا حرفًا وبحماسٍ شديد، وأعلمهن السحر الأسود، أتعرف لماذا هذا الكتاب بالذّات؟

لأنّه مطابق للكتاب الذي أعارني إيّاه هذا الشاب الذي يدعى «حسّان» في عالمنا... «القُلْقُطار»!، لا أدري لماذا كُنت أعلّم البنات ما فيه، حتى صرن ساحرات «أوبالس» كما أطلقن على أنفسهن بعد ذلك، أنا أشعر بالذّنب. أظنّ هذا لبعض الشرّ في نفسي، لقد كُنت هناك أشبه الطائر أطير بجناحين، جناح ملائكي، وآخر شيطاني، وهكذا حالنا كلّنا نحن البشر!، كُنت أحمل الكثير من الشرّ وأنا في بيت «مَيسان»، وفي لحظة ما استطعت أن أتغلّب عليه فانزويت بنفسي وهدأت جوارحي، كانت تلك اللحظة الفارقة وأنا بالقارب، وحولي مجموعة من النساء، يقتنصنا الموت على مهل فتتساقط حولي النساء واحدة تلو الأخرى وبقيت وحيدة هناك!

تغيّرت مشاعري فجأة، وصرت عجوزًا تحمل الكثير من الحنان في قلبها، وكأنني تخلّصت من الشرّ وأنا في هذا القارب، لكنني لم أجرؤ على إلقاء جثث النساء منه، ولمّا رأيت الصيادين استغثت بهم فأنقذوني وصحبوني إلى قريتهم. عشت وحيدة على أطراف القرية وقد اعتزلني الناس فقد كانوا يتشاءمون من وجهي، فقد وصلت إليهم في قارب مليء بالجثث، ولكن ما ذنبي أنا!

وكان هذا قبل لقائي مباشرة بـ«مُوراي» في القرية، فكان قطعة الحلوى التي فزت بها هناك، بحنانه وبرّه بي.

لقد كُنت أتجول في عالم رواياتك يا سيّد الكلمات، أنا أعرفُك جيّدًا، وأعرف كلّ ما مررت به هناك، ما زلت أذكر ملامحك، ومعطفك، ونبرة صوتك المميزة، ونظرتك الرحيمة عندما رأيتني ببستان السيّد «بركات» مع «الحزاورة» عندما أحضرك «مُوراي» وكنت أسكب الماء على رأسك وأنا أمسح على جبهتك، وأذكر حيرتك في البداية، ثُمّ ابتسامتك العذبة عندما رأيت «حبيبة».

عانيت وأنا هناك، فكلما هممت بإخبار من حولي عن حالي وما أنا عليه كانت الكلمات تُحتبس في صدري وينعقد لساني! لكنني أحيانًا كُنت أستطيع التلميح لكما أنت و«حبيبة» بالكلمات والإشارات، لكنّكما ولأنّكما لم تتوقعا أن يحلّ شخص من عالمكم محلّ شخصيّة ما في مملكة البلاغة وبهذه الطريقة، لم تنتبها لتلميحاتي تلك.

ما زلت أعاني أثر تلك التجربة العجيبة والفريدة من نوعها، والخرافية أيضًا! أكاد أفقد عقلي وأنا أجترّ الذكريات! فملامحي التي ولدتُ بها صارت غريبةً عنّي، في كلّ مرّة أنظر إلى المرآة أتوقع أن أرى ملامح تلك المرأة التي أَحبَّها من حولها هناك فأحببتُها أنا أيضًا، وكيف لا أحبّها وقد تحقق من خلالها حلمي بأن أكون أمًّا لأحدهم كـ«مُوراي»!ولو لوقت

قصير..، كانت تشبهني في صفاتها وطباعها، تحبّ ما أُحبه من طعام، وتكره ما أكرهه منه، حركاتها وسكناتها تُطابق حركاتي وسكناتي، حتى أنّها تضحك كيفما أضحك، وتخاف مما أخاف منه. اشتقت للحزاورة، ولـ«موراي»، كم كان جميلًا أن أذوق لذّة الأمومة ولو لأيّام معدودات، أن يحتاج إليك طفل صغير، أن يقترب منك لأنّه خائف فتحتضنه، أنّ تعدّ له الطعام بنفسك، أن تهتم به، تمسح على وجهه، فيخبرك فجأة دون إعداد سابق لكلماته وبعفوية جميلة بأنّه يحبّك فيرتجّ قلبك فرحة وامتنانًا، أحببت ذاك الشعور للغاية واستعذبته....

أمّا الآن، فسريعًا ما أرى ملامحي العادية ووجهي الحقيقي معكوسًا أمامي على مرآتي فأعود للواقع، وكأنني تلقيت صفعة عنيفة من أحدهم لأفيق. من آن لآخر تمر بخاطري تلك التعاويذ التي كانت ترددها العجوز «مِسكة» هناك، والتي حللت في جسدها بطريقة ما، أو اختفت هي في جَسدي بطريقة ماّ وكُنت أنا هناك ليراني أهل المملكة بملامحها...

هذا أمر عصيّ على الشرح والفهم!

أعلم أنني اقتحمت عالمك الخاص، لكنّه أمر ليس بيدي، ويبدو أنّ هناك من دفعني دفعًا لهذا. أتدري يا «يُوسف»، تغيّرت ملامحي مرّتين عندما حللت محلّ شخصيتين من روايتين لك، مرّة بدوت كعجوز أنهكتها الأيّام، وأخرى بدوت كامرأة طيبة القلب ممتلئة القوام ونضرة من الغجر! وكان هذا بعد مرور نصف المدّة التي قضيتها هناك تقريبًا، وبعد أن فارقني «مُوراي» الذي كان مصدر أمان بالنسبة لي، شعرت بالتيه عندما دلف معكم إلى درب من دُروب «أوبال»، وكأنّ «مُوراي» بحبّه لي كرابط يربطني بالشخصية التي كُنتُها! فقد كان شديد البرّ بي، وبعد دخولك يا «يُوسف» للدرب الأول من دروب أوبال وهو معك، اختفيتُ أنا فجأة من بين الحزاورة في بستان «بركات»، وظهرتُ في مكان آخر بملامح أخرى لغجرية أصغر عمرًا مما كُنت عليه، ولكن لها طباع تشبه طباعي.

كُنت قد نسيت كلّ ما مرّت به العجوز وسحرها في مرحلتي الأولى هناك، وكنت أذكر فقط أنني «مِسكة» الكاتبة التي حدث لها شيء ما!، جلست في تلك الخيمة أنتظر مَرور أحدهم ليؤنسني، فجئت أنت يا «يوسف» فجأة ومعك «حبيبة»، وتكرر الأمر...

هناك من يملي عليّ ما أفعله! وصرت أتحرك كقطعة شطرنج!!

في نهاية رحلتك وعندما رأيتُك تستعد للرحيل مع «حبيبة» بعد أن استردتْ كلمات كتابها وسلّمته لحرّاس المكتبة العظمى، لم أتمكّن من البوح بسري فانفطر فؤادي، وكُنت أخشى أن أنتقل لشخصية ثالثة لا أعرف سماتها وأفارق أهل البُستان كما حدث لي من قبل، فبكيت كثيرًا، تمنيت من قلبي أن أعود لوطني وبيتي ووحدتي، تركتكم بالبُستان وخرجت هائمة على وجهي، ووسط البكاء وعيناي مغرورقتان بالدموع ظللت أدعو وأكرر الدعاء، فهبّت رياح قوية، وتناهى إلى سمعي صوت همسات متداخلة لفتيات يتحدثن في آن واحد، ثُمّ سكنت الأصوات وعلت همهمات إحداهن وقالت جملة بصوت جميل، لم أتبيّن الكلمات وكان لحن صوتها جميلًا للغاية! وفجأة رأيت جناحين، نعم...رأيت جناحين كبيرين مبسوطين أمام عيني، لن أنسى أبدًا لونهما البديع...ما أروعهما!

وانبثق ضوء شديد ومتوهج أعماني فما عدت أرى شيئًا أمامي! وفقدت الوعي، ثُمّ وجدتني فجأة في غرفتي مرّة أخرى، لولا ملابس الغجر التي كانت لا تزال على جسدي لظننته حلمًا، لكنني تحسست الملابس بيديّ وركضت نحو المرآة لأتأكد أنني أرتديها بالفعل، قضيت لياليَ طويلة في حالة من الشرود والحيرة، ثُمّ أسرعت للطبيب.

لم يصدّقني طبيبي النفسي، رغم صدقي في كلّ ما رويته له، ورغم تكرار زياراتي بانتظام لعيادته الأنيقة، كان يُنصت إلى حديثي المضطرب ويهزّ رأسه في ثقة وهدوء، ويحدّق في عينيّ طويلًا، ثُم يمسك بقلمه ويدوّن ملاحظاته في ملفي ثُمّ يكتب لي الدواء. لم تخلُ وصفاته الطبية

من العقاقير المهدئة والمنومة، مللت منها، كُنت أستيقظ لأحشو فمي ببعض الطعام وأعود لأتطوّح وأزحف للفراش، أهملت نفسي وصرت لا أفرّق بين الليل والنهار، حتى أنني أصبحت أنسى شراء الخبز والطعام، كُنت مغيبة لفترات طويلة، ولا أجد من أبثّه همّي. انقطعتُ عن زيارة الطبيب، وغرقت في نوم ثُمّ نوم، توالت رؤيتي لكوابيس تظهر فيها الكثير من الرموز والطلاسم، أمّا ذاك الرمز الذي كان يتكرر حتى حفظته، أذكر أنني كُنت أرسمه من آن لآخر وأنا بمملكة البلاغة، فقد كان لا يفارق مخيلتي، لا أعرف معناه، لكنني أشعر أنّ وراءه سرًّا غامضًا يتعلّق بالجناحين، سأرسمه لك في نهاية الرسالة.

لم يشعر بي أحد يا «يُوسف»، ولم يزرني أقاربي، اعتاد الجميع أنني بخير لأنني لا أشكو إليهم ما يؤلمني، حتى هاتفي توقف عن الرنين، نسيتني صديقتي الوحيدة التي كانت تسأل عنّي، ازداد يأسي وتوقفتُ عن تناول الأدوية، كنت أشعر أن جدران بيتي الأربعة تقترب وتزحف تجاه بعضها البعض، كثيرًا ما كان يضيق صدري وأشعر بالاختناق، لا بدّ أنّها في لحظة ما ستلتصق ببعضها لتطحن عظامي.

بعد مرور عام ونصف من عودتي من تلك الرحلة في أرض مملكة البلاغة، عشت فيها تحت تأثير العقاقير التي جمّدت عقلي ومشاعري ولهذا لم أتابع ما نُشر من روايات جديدة لكتاب آخرين، ولكن عندما استعدت تركيزي عدت لمتابعة الجديد، كانت روايتك الجديدة تتصدر واجهات المكتبات، علمت لقب عائلتك من الصحف، قررت أن أبحث عنك، فأنت الوحيد الذي سيصدّق قصتي، وتتبعت أخبارك، رأيت صورك في حفل توقيع رواياتك في المجلات والجرائد، رأيت «حبيبة» وهي حامل في شهورها الأخيرة، رقّ قلبي لكما. كنت قد اشتريت الرواية من قبل رؤيتي للصور وقرأتها وسرّني ما كتبته عنّي فيها، فاشتقت إلى مملكة البلاغة، وإلى «مُوراي» و«الحزاورة»، وعدت

للكتاب الذي استعرته من «حسّان» وفتحته، وتحسست أوراقه، بكيت شوقًا للأمومة، وغضبت، ووجدتني أتساءل..لماذا لا أعود إلى هناك! بحثتُ عن الكلمات التي كررتها من قبل، وكررت قراءتها ثلاث مرّات، فظهرت فجوة كبيرة سوداء تتلاعب أمامي وهي معلّقة في الهواء وخرج منها هذا الكائن مرّة أخرى، هذه المرة كُنت أكثر ثباتًا من المرّة الأولى، وأكثر جرأة، فتحدّثت إليه وطلبت منه أن يعيدني إلى هناك، إلى بستان «حيزوم»، لأعيش مع «مُوراي» و«الحزاورة»، وكان شرطه الوحيد أن أختطف أحد أحفاد «أبادول» من الذّكور، وأحضره معي، وكُنت أعرف قصّة «أبادول» من «حبيبة»، فسألته لماذا يريدون حفيده..فلم يجبني. وضعت نفسي مكان أمّ هذا الحفيد الذي سأخطفه فهربت دمعة من عيني، شردت للحظات، وجلستُ حائرة، مرّت أيام وأنا عالقة في حالة من التردد، كُنت أشعر بالذنب، كيف سأحرم أمًّا من وليدها لأحقق غايتي! قررت إحراق كتاب السحر هذا، وبعد أن تخلّصت منه استيقظت لأجده مرّة أخرى أمامي! كررت المحاولة وباءت بالفشل!

خرجت من بيتي في هلع وأعدته لـ «حسّان»، والذي لم يسألني عن سبب تأخّري في إعادته إليه! بل استشاط غضبًا عندما علم بأنني لا أريد كتاب «القُلْقُطار»، ورمقني بنظرة توعّد أخافتني، كان صوت أمّه وهي تصرخ من غرفتها لتحذّرني لا ينقطع طوال هرولتي على الدرج بعد أن ألقيت الكتاب وركضت وهي تقول: «اهربي...اهربي».

عندما رأيتها أوّل مرّة كان الخوف يقبع بين عينيها، وكانت تنظر لابنها بريبة طوال الوقت! ليست هذه نظرة أمٍّ لولدها!! عدت لبيتي فوجدت كتاب «القُلْقُطار» هناك مرة أخرى! وكأنني لم أنقله من مكانه! صرت أتخبّط في دهاليز فكرية مظلمة، وطاردتني خيالات مضلّة، منذ شهور والكوابيس تلاحقني، وهذا الكائن يظهر لي دومًا ويطالبني باختطاف حفيد «أبادول»، وأنا أعيش في حالة من الرعب والتعاسة،

والآن أطلب منك العون، ومن «أبادول» جدّ زوجتك «حبيبة» فهو الوحيد الذي يعرف من هؤلاء الذين يظهرون لي، نعم...فقد ازداد عددهم، وهم يملأون بيتي كلّ ليلة، يقولون إنّهم من «الدّواسر»[١]، فمن هم «الدّواسر»؟

أكتب لأنني كلّما حاولت الاتصال بك هاتفيًّا لأحدثك عنهم ينعقد لساني، ولعلّك الآن تعرف سرّ المكالمات الصّامتة التي تأتيك من آن لآخر وكُنت تظنّ أحدهم يضايقك.كُنت أنا على الطرف الآخر من الهاتف يا «يُوسف»، لكنني لم أتمكّن من تحريك لساني، تلك الرسائل على بريدك الإلكتروني والتي كُنت أطالبك فيها بالحضور للقائي لا أدري لماذا لم تجب عليها! كل مخططاتي للسفر إليك باءت بالفشل، فهناك دومًا ما يمنعني، إمّا حادثة وتتوقف القطارات ويُغلق الطريق، أو مرض شديد يقعدني، أو تختفي أموالي وبطاقتي الشخصية من حقيبتي وأنا في طريقي لمحطّة القطار فأعود لأجدها في البيت، وكان أحد «الدّواسر» يهمس لي دومًا: «لن تذهبي ولن تحذّريهم، وإيّاك أن تبوحي بالسرّ، فنحن نعلم كلّ ما يدور بخاطرك»..

جرّبت كلّ شيء، واكتشفت أخيرًا أنّ قلمي الرصاص الذي طالما كتبت به رواياتي بعيد عن أعينهم وسيطرتهم، فقد جرّبت الكتابة على الورق بالأحبار فأحرقوا أوراق رسالاتي! أمّا الرّصاص فهو الوحيد الذي استطعت كتابة رسالتي تلك به، والتي أدونها الآن بيدي وسأرسلها إليك بالبريد، لا أدري ما السبب..لكنني سعدت بهذا الأمر، على الأقلّ قلمي الرّصاص ما زال حرًّا، رغم أنّ روحي مقيّدة بأغلال يصعب عليّ شرحها لك...

هذا عنواني إن أحببت لقائي...أنتظرك!

ملحوظة: هاهو الرّمز الذي أخبرتك عنه

---

(١) الدّواسريّ أي الشديد القويّ، والضخم الجسم، وجمعها الدّواسر.

كان الرمز بيضاويًا يحتوي على رسمة لجناحين مختلفين، كلّ منهما عليه نقوش تختلف عن تلك المنقوشة على الجناح الآخر، وكان هناك سيف غريب الشكل يفصل بينهما!.

2
وبعد عشرين سنة

في بيت الجد.....

عشرون عامًا مرّت وما زالت عائلة «أبادول» تداوم على الاجتماع كل شهر في بيت الجدّ بالفيّوم، غُرف البيت تعبق برائحة المخبوزات الشهيّة، العصافير وهي تتبادل التغريد على الأشجار وكأنّها جَوْقةٌ[1] موسيقية منظّمة أضفت على الأجواء سحرًا خاصًّا، بدأت أصواتهم تنخفض تدريجيًا في إيقاع منتظم، تناغمًا مع انسحاب الشمس بنعومة وهي تتدحرج على خطّ الأفق بدلالٍ مغادرةً عرشها بينما تجرّ طرف ردائها المذهّب خلفها، تاركة جلبة مِن السّحب وحُمرة أرجوانية تلوّن صفحة السماء.

في شموخ أطلّ بيت الجدّ «أبادول»، زجاج نوافذ البيت يضوي وهو يعكس بريق أشعة الشّمس ليودعها على وعد بلقاء آخر في الصباح التالي، هنا في تلك البقعة التي شهدت الأعاجيب، تحت الأرض، وفوقها، وحتى عنان السماء حيث تحلّق الصقور.

ما زال هذا البيت أنيقًا وفخمًا، الثريات تتدلى من الأسقف وتلقي بأضوائها الملوّنة على الجدران، غرفة المعيشة كعادتها دافئة، والمشهد من

(١) جَوْقة جمعها جَوقات وهي جماعة من النّاس أو الفنّانين يؤدُّون عملًا مشتركًا من غناء، أو عزف آلاتٍ موسيقيّة، أو دورٍ تمثيليّ . جَوْقَة موسيقيّة: فرقة موسيقيّة.

نافذتها العريضة بديعٌ للغاية، حتى الحديقة ما زالت تحتفظ بنضارة أشجارها، وروعة أزهارها، وكأنّ هناك بستانيًّا خفيًّا يعتني بها! فبعد وفاة «صفية» التي لم تغادر هذا البيت لسنوات طويلة، صار زوجها «راغب» الذي كان يعتني بالحديقة محطمًا وضعيفًا لا يقدر حتى على غسل ثوبه بنفسه، اضطر الجدّ لتوظيف شاب رشّحه له أحد أصدقائه، والذي يثق به، «فريد» لا يعرف أسرار البيتً بالتأكيد حتى الآن، لكنّه يسأل كثيرًا عن تلك الغرفة الفارغة في الطابق العلوي، ويتعجب لأنّهم يتركونها فارغة! ولا يجرؤ على الاقتراب من المكتبة القابعة بالحديقة بعد تحذير «راغب» له، والآن فضوله شديد لكشف سرّها الغامض، «راغب» يُشرف عليه ويراقبه عن كثب، على أيّ حال، هو شاب هادئ رغم أسئلته الفضولية. كان «راغب» يؤنس الجدّ «أبادول» الذي بدوره قد نحل جسده للغاية وتحول لقميص من الجلد يحوي عظامه الرّقيقة، وخاصّة بعد أن اشتد عليه المرض خلال الشهر الأخير.حمل صوت «راغب» على الهاتف الكثير من الألم وهو يصف حالة «أبادول» لابنه السيّد «كمال»، والذي قرر الانتقال للإقامة مع أبيه بمنزله الغامض بالفيّوم هو وزوجته، فالجدّ يرفض ترك بيته العتيق، وبعد زواج «أنس» و«حبيبة» صار لديهما وقت فراغ كبير.

ترك «كمال» فنجان قهوته وخرج من غرفة المعيشة، ليهرول في الرّواق متوجهًا نحو الباب فقد رنّ هاتفه الجوّال وأضاءت شاشته باسم «أنس»، وقف السيّد «كمال» أمام النقوش البديعة والمطعّمة بالنحاس التي كانت تتوسّط الباب وتحسسها بأطراف أصابعه، لاحت على شفتيه ابتسامة خفيفة، داعبته الذكريات، تذكّر «مملكة البلاغة» وما حدث له فيها، شرد قليلًا ليأتي صوت بوق سيّارة «أنس» ليخرجه من شروده، كان يسير بتؤدة وسط الممر الضيق المرصوف بالحجارة وعلى الجانبين اصطفّت أشجار الريحان ونسمات الهواء تهزّ أوراقها ترحيبًا بأسرة «أنس»، كان

السيّد «كمال» مشتاقًا لأحفاده، وخاصّة «فرح»، التي تبلغ الآن العاشرة من عُمرها، يبدو «كمال» فخورًا وهو يتأمّل حفيديه التوأمين الشابين، «حمزة» و«خالد»، فكلاهما يشبه أباه، نفس الوجه، والعينان البندقيتان، كان من الصعب التفريق بينهما، لكنّ اختلاف طباعهما وطريقة السير وحتى الملابس والكلام سهّلت المهمة على من لا يستطيع التمييز بينهما، كان «حمزة» شابًا كثير الصمت، ساخطًا على كلّ شيء، قد يبدو هادئًا، وحليمًا، لكنّه يخفي خلف هذا المظهر الكثير من الغضب، لم يكن اجتماعيًا وهذا كان سببًا من أسباب انعزاله عن الناس، وكان يكره الحديث عن مملكة البلاغة، ما زال ينكر ما يرويه أبواه عنها، وحتى «أبادول» نفسه لم يفلح في إقناعه بأنها حقيقة، أمّا «خالد» فكان أكثر مرحًا من أخيه، تضجّ حياته وحركاته بالحيوية والنشاط، وكان يعشق قراءة الكُتب وخاصة العلمية منها، فكان أكثر ثقافة من أخيه.

أسرع «فريد» وفتح البوّابة ليدلف «أنس» بسيارته، هرول السيّد «كمال» تجاه السيّارة واقترب من «أنس» وتعانقا طويلًا، كان لقاؤه بحفيديه مبهجًا فهو شديد التعلّق بهما، أمّا «فرح» فهي المدللة من جدّها الحنون. دلف الجميع للبيت، وأسرع «أنس» يتفقّد «أبادول»، كانت «حبيبة» قد وصلت قبلهم مع «يوسف» وابنتها «سارة» وولدها «سليمان»، لم يغلق «فريد» البوابة الحديدية رغم تنبيه «راغب» له مرارًا وتكرارًا، دلف إلى المنزل حاملًا حقائب «أنس» وأسرته غير مبالٍ بالبوابة المفتوحة، في تلك اللحظة تسللت قطة سوداء واختبأت بين أشجار الحديقة، اختفى قرص الشمس وسريعًا ما ألقى الليل عباءته الموشاة بالنجوم على المنزل ومن فيه، سكنت القطّة المتلصصة وسط الظلمة وبقيت عيناها الخضراوان المفتوحتان تضويان بين الأشجار.



اجتمع «أبادول» مع ولده «كمال» وأحفاده حول المدفأة في غرفة المعيشة القابعة بالطابق السفلي من بيته، كانت زوجة ابنهِ «كمال» توزع فطيرة التفاح على الجميع، الغرفة تعبق برائحة القرفة، لم تنس أن تعدّ بعضًا من الفطائر بالجبن من أجل «حمزة» فهو يكره القرفة، ويكره الحلوى التي يحبّها الجميع، بل ويكره كل شيء تجتمع عليه العائلة، كان يهزّ كتفيه باستنكار بعد أن أنهى الجدّ الأكبر «أبادول» قصّته عن مملكة البلاغة، وكان السيّد «كمال» يستعد ليروي هو أيضًا مغامرته هناك، لكنّ «حمزة» همس لأخيه قائلًا:

-لولا أنّ هناك شخصًا من خارج العائلة يوافقهم فيما يروونه لنا كلّ مرّة، وهو زوج عمّتي «يُوسف» لظننت أن عائلتنا تعاني من مرض عقلي وراثي.

لاحظه «أنس» وهو يهمس لأخيه، فباغته قائلًا وكان يتوقع ما يدور برأس ابنه:

-لعلّك يا «حمزة» تظننا نعاني خطبًا ما، مرضًا عقليًّا مثلًا، أو ضلالات فكرية معيّنة!

قال «حمزة»بحرج:

-لم أقل هذا يا أبي.

- أعلم ما يدور برأسك، فقد كُنت يومًا مكانك، وفي عمرك، أستنكر ما تستنكره أنت حتى رأيته بأمّ عيني.

قال «حمزة» بتضجر:

-مللت من الخوف الدائم وترقب ما سيحدث، أشعر بالاختناق، في الحقيقة.. أكره هذا البيت.

قالت الجدّة وهي تقترب من حفيدها لتناوله قدحًا من الشاي الساخن:

-أنصت لأبيك يا حبيبي، فهو يحبّك ويخشى عليك وأخيك من الصدمة.

رفع حاجبيه قائلًا:

-تقولين هذا يا جدّتي وأنتِ الوحيدة هنا التي لم ترَ بعينيها ما يصفونه!

طالعته جدّته بثقة وقالت:

-لكنني أثق بهم، لم أعهد عليهم الكذب!

ثُمّ شردت قليلًا وقالت:

-لم يخبرني جدّك بقصّة المملكة وما يحدث فيها إلّا بعد عودة «أنس» من هناك.

ثُمّ ابتسمت قائلة:

-أتدري، تمنيت لو ذهبت إلى هناك، أعجبتني «الحوراء»، و«ناردين»، و«مَيسان»، ليتني أستطيع رؤيتهن، واحتساء فنجانٍ من القهوة معهن.

وقف «حمزة» فجأة ثُمّ رفع صوته وصاح ساخرًا وهو يدور حول نفسه وسط الغرفة:

-حسنًا، أين الصقور؟ أين الكتب التي تطير؟ أين هذا «الزاجل الأزرق»؟

ثُمّ التفت تجاه زوج عمّته وقال له:

-أين حجر «أُوبال» يا عمّاه؟ فلتضرب عليه وتفتح لنا دربًا لنفرّ من هنا إلى أيّ بلدٍ آخر!

ثُم التفت تجاه إخوته وأولاد عمّته وصاح في وجوههم:

-أبشروا يا رفاق، ستلتقون بالمجاهيم، سيظهرون بظلمتهم الحالكة من تحت الأرض.

صاح «أنس» ينهر ابنه وقال غاضبًا:

-«حمزة»! ما الذي تفعله؟

أشاح «حمزة» بنظراته بعيدًا، التقت عيناه بعيني أمّه، نظرة عتاب من «مرام» لابنها كانت كافية، فهو شديد التعلّق بها، التفت تجاه وجه أخيه «خالد» والذي لم ينبس ببنت شفة، لكنّه كان يثقبه بنظراته في صمت، فَهِم ما يرميان إليه، جال بعينيه في المكان، الكلّ يحدّق تجاهه، لقد تجاوز الحدود ورفع صوته وسخر من الجميع، أسرع متململًا يعتذر لهم.

كالعادة، يثور «حمزة» فجأة كالبركان، يرفع صوته ويجادل، ثُمّ يعتذر ويهرب من المكان، ما زال رسوبه هذا العام بالجامعة يؤلمه، يشعره أنّه إنسان فاشلٌ وعديم الفائدة، زهد في الدراسة وربّما في الحياة كلّها، كان يرى أن لوالده دورًا في تأخره الدراسي، فـ «أنس» كان لديه رهاب من شيء ما! سرّ يخفيه عنهما، حتى أنه أخّر تسجيلهما في المدرسة لعامٍ كاملٍ، وقد ورّث هذا الخوف لـ«حمزة»..

التوأمان «حمزة» و«خالد» أمضيا فترة الروضة بالبيت مع أمهما، يحضر لهما أبوهما كلّ شيء بالبيت، والخروج ممنوع، خلال طفولتهما كان الذهاب إلى الفيوم أيضًا ممنوع! بدأ «أنس» يتحلّى بالشجاعة عندما انتقل «يُوسف» و«حبيبة» للسكن بالقرب منهم في الإسكندرية، وقاما بتسجيل ابنتهما «سارة» في المدرسة القريبة من البيت، وقتها بدأ «أنس» يتحلّى بالشجاعة وألحق ولديه بنفس المدرسة، وبدأ تدريجيًا يستعيد تركيزه في عمله بالشركة الهندسية التي يعمل بها، والذي كان قد أهمله مما أحزن الجميع. كاد «حمزة» يغادر غرفة المعيشة هاربًا من أعينهم، لكن أباه استوقفه هذه المرّة وهو يسحبه من ذراعه، ثُمّ أشار لأخيه «خالد» ليتبعهما، وتبادل مع «يُوسف» النظرات ففهم ما يرمي إليه، فنهض الأخير وهو ينادي على ابنته «سارة» التي تصغر أولاد عمّها بعام، لكنّها و«خالد» يدرسان في نفس المرحلة الجامعية. اتجه الخمسة لغرفة

المكتب الخاصّة بالجدّ «أبادول» بداخل منزله، والتي كانت تحتوي على جزء ضئيلٍ من كنز الكُتب الموجود بمكتبته الأكبر القابعة في الحديقة، بينما بقي «أبَادول» بغرفة المعيشة يحدّق في لهب الحطب المحترق بالمدفأة ويتمتم بآيات القرآن، وهَن العظم منه بعد أن تخطى التسعين من عمره، كان لديه الكثير من الأسرار المخبوءة التي لم يخبرهم بها بعد، ويظنون أنهم يعرفون كلّ شيء عن مملكة البلاغة! وهاهو ولده «كمال» يتخطى السبعين من عمره، ترى ماذا تخبئ لهما الأيام من مفاجآت، التفت السيّد «كمال» تجاه «فرح» و«سليمان» وهمس وهو يقترب منهما وهما يتهامسان على مقربة من المدفأة فقد كانت الليلة باردة:

-من سيساعدني ويجلب سلّة الكستناء من المطبخ؟

تسابقا ليجلباها فقد اعتادا على مراقبة جدّهما وهو يعدّها لهما أمام المدفأة في ليالي الشتاء، كانت ضحكاتهما ترتفع مع كلّ فرقعة يسمعانها بينما تنضج ثمار الكستناء ليأكلاها في نهم، في غرفة أخرى وعلى مقربة منهم كان «أنس» يكشف سر خوفه على ولديه طوال تلك السنوات، ويشرح لـ«حمزة» الغاضب سبب هلعه عليه وشقيقه دومًا.

قال «أنس» موجها كلامه لـ«حمزة»:

-أعلم أنّك حفظت حكاياتنا، وربّما لن تصدقها إلّا عندما ترى مملكة البلاغة بأمّ عينك، لكنني اليوم، وقد أوشكت أنت و«خالد» على بلوغ العشرين من عمركما سأخبركما بسر أخفيته عنكما، وكان سببًا في خوفي عليكما بهذا الشكل المرضي، سرّ يتعلق بكاتبة التقتْ بها عمّتك «حبيبة» وزوجها «يُوسف» هناك، على أرض مملكة البلاغة.

ثُمّ اعتدل في جلسته، وأمسك كتاب «القُلْقُطار» الذي كانت أوراقه صفراء اخضرّت أطرافها والتَوت وكأنّ هناك عفنا أصابها بسبب الرطوبة، وكان له غلاف قاتم ومرقش يشبه جلد البشر، تفوح منه رائحة كريهة تشبه رائحة العرق، وقال وهو يرفعه ليراه الجميع:

-هذا الكتاب، كان آخر ما كان بين يدي الكاتبة قبل أن تموت

صاحت «سارة»:

-يا إلهي، هل ماتت هناك؟ على أرض مملكة البلاغة؟

-بل في بيتها.

وضعت «سارة» يدها على فمها وسألت بخفوت:

-كيف؟

رفع «أنس» حاجبيه وقال:

-«مِسكة» كانت كاتبة، ويبدو أنّها بطريقة ما استطاعت أن تنتقل إلى مملكة البلاغة، ليس كمحاربة ولكن في صورة شخصية من شخصيات رواية «يُوسف»، حلّت محلّها بطريقة ما، كانت تبدو هناك بملامح الشخصية نفسها، تنطق بكلماتها، وتعيش حياتها، وليس لها الحق في الدفاع عن كتاب ما لتسترده، لأنّها ليست محاربة.

سأله «خالد» وهو يحدّق في كلمة «القُلْقُطار» المنقوشة على غلاف الكتاب:

-وأين ذهبت الشخصية نفسها؟

قال «يُوسف»:

-يبدو أنّها ظلّت كما هي، فالأحداث التي تدور حولها استمرت، ودورها ظلّ كما هو! ومن عَاني فقط هو «مِسكة».

سأله «حمزة»:

-هل التقيتما بها قبل وفاتها؟

تنحنح «يُوسف» ثُمّ قال:

-لا...كانت تحاول الاتصال بي بالهاتف، لكنّها لم تتمكن من الكلام، حتى الرسائل الإلكترونية ورسائل الهاتف التي اتضح أنّها أرسلتها كانت تصلني منها فارغة! وكلّما حاولتُ إعادة الاتصال بالهاتف كان يجيبني المسجل الآلي أنّ هذا الرقم غير موجود بالخدمة! لم أكن على علم بأنّها «مِسكة» .

هزّ «حمزة» كتفيه وسأله:

-وكيف عرفتم كلّ هذا إذًا؟

أجابه «أنس»:

-من رسالتها التي أرسلتها لـ«يُوسف»بالبريد العاديّ، وبخطّ يدها، بقلم رصاص عاديّ، بعد عودتها من مملكة البلاغة.

أغمض «أنس» عينيه هنيهة وأضاف قائلًا:

-بعد وفاة «مسكة» قُمنا بزيارة شقيقها بعد أن عاد من «كندا» ليقوم بدفنها وكنّا نعزّيه عندما رأينا هذا الكتاب على مكتبها.

التفت «أنس» نحو كتاب «القُلْقُطار»، وقال وهو يحدّق في غلافه:

-هذا كتاب للسحر، وهذا الجزء الأوّل منه، فيه الكثير من الطلاسم تستخدم لاستجلاب الجنّ وتسخيرهم لخدمة من يردد تلك الطلاسم المذكورة، وللأسف يحتوي على الكثير من الضلالات، ومن يستخدمها يخسر الكثير من دينه ونفسه وروحه، وربّما يخسر حياته، في نهايته يوجد تنويه أنّ الجزء الثاني منه يحكي قصصًا حدثت بالفعل، لكننا لم نجده بين الكتب التي جلبناها من هناك.

سأل «حمزة» وهو يرنو لوالده:

-ولماذا لم تتخلّصا منه يا أبي؟

زفر «أنس» بحنق وقال:

-كل الطرق التي نعرفها لم تنجح، جربنا أنا و«يُوسف» حرقه، وجربنا تمزيقه، حتى أننا سكبنا عليه الأحماض ليهترئ، كان يختفي ويظهر مرّة أخرى في مكان آخر!! هذا الكتاب غريب! «القُلْقُطار» يصمد أمام كلّ شيء، لا بدّ أنّ هناك طريقة مختلفة وغريبة لإبادته.

سأله «خالد» وعيناه ملتصقتان بغلاف الكتاب:

-وهل قامت «مِسكة» باستخدام طلاسمه يا أبي؟

-نعم عن طريق الخطأ.

-ماذا تعني؟

اعتدل «أنس» في جلسته وبدأ يشرح:

-لم تكن «مسكة» ساحرة، ولم تسع للاستعانة بالجنّ في الأصل عندما كانت تقرَأ الكتاب، هناك من ضللها ليستغلها في فتح الطريق لمملكة البلاغة، وما زلنا نبحث عنه.

هزّت «سارة» رأسها بحيرة وسألته:

-كيف حدث كلّ هذا؟

وضع «أنس» رسالة «مِسكة» أمامهم وقال:

-ستجدون كلّ شيء برسالتها تلك.

كان «أنس» حريصًا على تغليف الرّسالة بطبقة بلاستيكية شفافة حتى لا تهترئ، بدأ يقرؤها برويّة، وأنصتوا إليه في خشوع، وأطبق عليهم الصمت بعد أن أنهاها، وكأنّ على رؤوسهم الطير، سأله «خالد» بفضول شديد:

-أين الجزء الآخر من هذا الكتاب؟

-مفقود...لم نجده بين كتب «مِسكة».

-وكيف وصل كتاب «القُلْقُطار» إلى هنا؟

-عندما التقينا بشقيقها كما أخبرتكم منذ قليل، وكنا على علم بوجود الكتاب ببيت أخته كما ذكرَتْ في رسالتها، عرضنا عليه شراء مكتبتها، وبعد أن تعرّف على «يُوسف» لأنّه كاتب مشهور أهدانا كلّ ما بمكتبتها من كُتب عتيقة، فقد كان زاهدًا فيها لأنّه لا يهتم، أو ربّما لأنّه كان على سفر ولن يتمكن من حملها معه! وكنّا نعلم من رسالتها مواصفات الكتاب.

قال «حمزة» بغضب:

-ولهذا قمت بحبسنا بالبيت وحرمتنا من الاستمتاع بطفولتنا.

طالع «أنس» وجه ابنه «حمزة» وتمعّن فيه قليلًا، طالما أتعبه بعناده الشديد، لكنّه كان يعلم أنّ ابنه يخفي خوفه الذي كان هو سببًا فيه خلف هذا القناع، أجابه وما زالت عيناه معلّقتين بعينيه:

-لأن ما حدث تسبب في تحرر «الدَّواسِر» من أَسرهم وعودتهم بسلطانهم وطغيانهم لعالم «مملكة البلاغة».

سأله «خالد» بفضول:

-ومن هم «الدَّواسِر»؟

قال «أنس» وهو يمسح جبهته بتوتّر:

-عشيرة من الجن كانت تعيث في أرض المملكة فسادًا، طغوا في بقاعها وأكثروا فيها الفساد لسنوات طويلة، وكان لجدكم «أبادول» الفضل في إنهاء حقبتهم تلك، ونصر «المجاهيم» عليهم، لهذا هم يكرهونه، وقرروا الانتقام منه بخطف حفيد من أحفاده، ليربوه على شريعتهم ويلقنوه ما يؤمنون به، ليكون شوكة تخترق فؤاد «أبادول» الذي يدافع ونسله عن القيم، ولينتقموا منه، منذ وفاة «مسكة» وزعيم «الدّواسر» يطارد «أبادول» في أحلامه ويكرر تهديده لَه، لهذا كُنت أخاف عليكما، وما زلت أخاف!

قالت «سارة» وهي تعقد كفّيها على المكتب:

-إذًا كلاهما كان في رواية كاتب ما...«الدَّواسر» و«المجاهيم»!

-بالتأكيد، كان هذا منذ سنوات طويلة، وقتها كان «أبادول» في ريعان شبابه، لم يشكلوا قلقًا لأيّ منا خلال رحلته، لا أنا، ولا أبي، ولا والديك يا «سارّة»»، لم نعانِ من شرورهم، وكان «المجاهيم» دومًا في صفّنا وأعانونا كثيرًا، أمّاَ «الدَّواسِر» فلن يكونوا أبدًا في صف أي شخصٍ ينتمي لعائلة «أبادول».

قال «حمزة» غاضبًا:

-لماذا لم تخبرنا من قبل!! كان من الممكن أن يظهر الرمز خلال السنوات الماضية، كما ظهر لعمتي قبل بلوغها العشرين من عمرها!

لاحت ابتسامة ساخرة على شفتي «خالد» وقال له:

-يبدو أنّك الآن تصدّق يا صاح!!

اضطرب «حمزة» وكاد يعنّف أخاه، لولا «يُوسف» الذي ربّت على كتفه ليهدئه، نكّس «أنس» رأسه وقال وهو يشد قبضه يده:

-ما زلت أشعر بالذنب لأنني كُنت سببًا في توتّركما وخاصّة «حمزة» وهذا انعكس على دراسته، كما أنني لا أعرف كيف سأنقذكما هناك، ليس بيدي شيء، لو استطعت لسبقتكما إلى هناك، ولهذا قضيت الأعوام الماضية وأنا أدرس بحذر في هذا الكتاب، لعلّني أصل لشيء ما! ولا أخفي عليكم، كُشفت لي الكثير من الأسرار التي لم أرغب يومًا في معرفتها، أسرار عن السّحر، وأخرى خطيرة عن عوالم الجنّ، أدركت أنّ حولنا الكثير من المخلوقات التي لا نراها بأعيننا، لكنّها ترانا، وتراقبنا، وتعرف الكثير عنّا، ولا يحمينا منها إلّا ذكر اللّه!

أشفق «حمزة» على أبيه، كاد يقترب منه ليضع يده على كتفه لكنه لم يفعل، ما زال هناك حاجز بينهما، لكنّه الآن يعرف سبب قلقه الدائم وانشغاله، أراد أن يقول شيئًا لولا «فرح» و«سليمان» اللذان اقتحما الغرفة وهما يحملان الكستناء، ضجّ المكان بضحكاتهما، خرجوا جميعًا استجابه لنداء السيّد «كمال» الذي أخبرهم أنّ الجد الأكبر «أبادول» يطلب منهم الحضور الآن لمجلسه، ترك «أنس» كتاب السحر مفتوحًا على المكتب، وسار معهم تجاه غرفة المعيشة، لاحظت أمّ «أنس» توتّر ابنها وكذا باقي أفراد العائلة، فقامت بقلب دفّة الحديث عن أشياء أخرى لتخفف عنهم، ونجحت بالفعل، بينما كان «حمزة» يفكّر في المكتبة القابعة بالحديقة، لقد قرر اقتحامها الليلة بعد أن ينام الجميع، لماذا لا يهدمها أو يحرقها ليتخلّص من تلك العفاريت التي يثرثرون عنها، كان يرغب بشدّة في كسر هذا الشعور بالقلق وهذا الخوف الذي بدأ يتسرّب إلى نفسه بعد حديث أبيه، وهو يكره الخوف!

صرخة هلع شقت دياجير الظلام التي خيّمت على بيت الجدّ «أبادول»، كانت هناك فجوة سوداء معلّقة في الهواء تدور في دوّامة وتسحب أصغر حفيداته «فرح» لتبتلعها، كانت ابنة عمّتها «سارّة» تجذبها من ذراعيها وهي تثبّت قدميها على الأرض وتصرخ معها في آن واحد، فقد كانت أوّل من هرع إليها عندما استغاثت بمن بالبيت. اهتزّت جدران البيت وكأنّ زلزالًا قويّا يضربه، استيقظ باقي أفراد العائلة، وهرعوا لغرفة مكتب الجدّ حيث كانت الفجوة السوداء تتسع وتتسع، صرخت «فرح»:

-أبي...أنقذني.

أمسك «أنس» بذراع ابنته الآخر وحاول أن يسحبها بأقصى قوته، لكن قوّة السحب كانت شديدة، بدأت ساقا «سارة» التي كانت تتشبث

بذراع «فرح» تتحرّكان من مكانهما وتنزلقان على الأرض، اقترب «خالد» وأمسك بذراع أخته مع ابنة عمّته ليسحباها لكنّهما لم يتحرّكا معها قيد أنملة، انفلتت يد «فرح» من يد أبيها فسقط على الأرض، اقترب «خالد» واحتضن أخته واستدار بسرعة خاطفة ليقتنصها ويخلّصها، فتمكّنت «سارة» من جذبها وسقطتا بجوار «أنس»، في لمحة عين كانت الفجوة قد ابتعلت «خالد»، وثب «أنس» وحاول القفز إلى داخل الفجوة خلف ابنه لكنّها لفظته بقوّة ليصطدم بحائط الغرفة المقابل لها، صرخت «مرام» في هلع وخرّت «فرح»على ركبتيها وأجهشت بالبكاء، لقد اختفى «خالد» في لمحة عين، كانوا جميعًا في حالة من الذهول، أمّا «حمزة» فقد كان يقف متخشّبًا كالصّنم على باب الغرفة، فقد وصل في اللحظات الأخيرة، ورأى الفجوة وهي تلتقم أخاه التوأم «خالد» ثُمّ تدور في الهواء. أخطأ الصغيران «سُليمان» و«فرح» عندما اقتربا بفضول من كتاب «القُلَقُطار» الغريب الذي وضعه «أنس» الليلة الماضية على مكتب «أبادول» بعد أن أنهى حديثه مع ولديه «حمزة» و«خالد» عن هذا الكتاب، لم يعلم الصغيران أنّ تكرار تلك الكلمات المكتوبة على هامش إحدى صفحاته بصوت مسموع سيتسبب في تلك المصيبة!

لحظات عصيبة مرّت على كلّ من بالبيت، كانوا يتخبطون والكلّ يتحدّث في آن واحد، كان اختفاء «خالد» مختلفًا هذه المرّة، لم تحمله الصقور، ولم يظهر «الرمادي» ليطمئنوا على تسليمه. كان «حمزة» غاضبًا للغاية، فقد عاد من المكتبة للتوّ، لقد نفّذ قراره الذي اتخذه واقتحم المكتبة بالفعل، لم يتمكن من كبح فضوله بعد حديثه مع أبيه عن مملكة البلاغة، فسار وهو يغالب مخاوفه وسط ظلمة الحديقة وفتح المكتبة، كانت يده تقبض بقوّة على العصا الغليظة التي حملها ليحطم بها كلّ شيء، لكنّه لم يفعل، ولم يُشعل بها الحريق كما قرر، بل بدأ يفتّش ويسحب كتابًا تلو الآخر ويقلّب صفحاته، كاد يعود للبيت عندما لم يجد ما

يشبع فضوله، لا كُتب تتحرّك، لا رموز، لا صور تظهر على صفحات كُتب عتيقة بيضاء خالية من الكلمات، ولكن...

عندما تعالت صرخات أخته «فرح» وسمعها وهو بالمكتبة وحاول الخروج ليجيب استغاثاتها...انغلق باب المكتبة فجأة، ودارت حوله الكُتب بطريقتها المعهودة، رأى الرمز بالفعل، وكان أبوه حريصًا على تعليمه الأرقام النّوبية، خطان قصيران أفقيان متوازيان الأسفل منهما يتصل بشكل دائري، هذا هو الرقم خمسة باللغة النوبية «ديجا»، وسريعًا ما ظهرت صورة وجهه على صفحة الكتاب الخالي من الكلمات. تمّ هذا بسرعة شديدة، وكان صراخ من بالبيت يتزايد، التقط الكتاب وانطلق راكضًا تجاه البيت ليخبرهم بما حدث، لن ينسى أبدًا هول منظر تلك الفجوة وهي تبتلع أخاه! قال بخفوت وهو يرفع الكتاب في يده:

-لقد رأيت الرّمز وظهرت صورتي بهذا الكتاب.

أقبل «كمال» وتناول الكتاب منه وتأمّل غلافه وقرأ الاسم المنقوش عليه متعجبًا...«أوري»!

حاول «أنس» أن يستعيد رباطة جأشه ومد يده برسالة «مِسكة» لابنه «حمزة» وقال له:

-خذ هذه الرّسالة معك، وانتبه لكلّ حرف فيها، ولا تخرجها من غلافها حتى لا تهترئ، فقد اقترب وصول «الرمادي».

ثُمّ أخرج «أنس» من جيبه نفس المفتاح الذي وضعه أبوه في يده منذ سنوات، قبل الرّحيل إلى مملكة البلاغة، فسوف يحتاجه «حمزة» أيضًا عندما يصل إلى المكتبة العظمى، أعطاه له وحذّره من فقدانه، قال «حمزة» هلعًا وهو يتلجلج في حالة هستيرية:

-ولكنني لست مستعدًا للذهاب.

صاح «أنس» بانفعال شديد وهو يضرب على صدره:

-كيف تجرؤ على قول هذا، أخوك هناك يحتاجك.

-كيف يا أبي..كيف؟

لاحظ «أنس» اصفرار وجه ابنه فتذكّر كيف كان شعوره عندما كان في موقفه منذ سنوات، جذبه من ذراعه واحتضنه بقوّة وقال وهو يحاول إظهار تماسكه:

-أين جرأتك وقوّتك التي طالما تتباهى بها يا ولدي؟

-لم أكن يومًا جريئًا..كُنت أتصنع هذا يا أبي.

حدّق في عينيه وقال:

-لكنّك قوي...أعرفك، ستتغلب على كلّ مخاوفك يا بنيّ.

ثُمّ أضاف وهو يربت على ظهره:

-أرجوك...تماسك.

مرّت لحظات ثقيلة، كان «حمزة» مرتبكًا وهو يقول:

-ماذا سنفعل؟

قال «يُوسف» وعيناه مثبتتان على كتاب السحر الذي جلباه من بيت «مسكة»:

-أخشى أن...

-ماذا؟

-أنّ «خالد» دلف الآن في رواية خاصّة بكاتب ما، كما حدث لـ«مِسكة»، وسيحلّ محلّ شخصيّة فيها.

صاحت «مرام» وهي تمسك رأسها وما زالت الأرض تميد تحت قدميها:

-نعم، يبدو ذلك، هكذا رحلت «مِسكة»، بلا كتاب معها، فهي لم تكن محاربة.

صاح «حمزة» بغضب:

-وما الحل؟

قال «أبادول» الذي كان يلتزم الصمت، وكان قلبه يخفق ويعتصر في صدره:

-فلنصبر حتى يصل «الرمادي»، حتمًا سيحدث شيء ما.

سأله «حمزة»:

-ومن أين أتيت بهذا اليقين؟

في تلك اللحظة، انطلق أذان الفجر فظللتهم السكينة، وهدأت أنفاسهم قليلًا رغم هول الصدمة عليهم، جلس كلّ منهم مكانه، بعضهم على المقاعد، وبعضهم على الأرض، وكان «حمزة» ممن جلس على الأرض متأهّبًا وكأنّه يترقب ظهور الفجوة مرّة أخرى، التفت «أبادول» تجاهه وقال بصوت واثق:

-القلب الممتلئ بالإيمان عامر باليقين، وفرج الله قريب ممن يثق بقربه يا ولدي.

تناهى إلى سمعهم صوت نعيق غربان، أجفل «حمزة» وسألهم:

-ما هذا؟

قال «أَنس»:

-تلك الغربان التي أخبرتُك عنها.

رشقت كلمات «أنس» في قلب ابنه«حمزة» الذي صاح في تخبّط:

-لستُ مستعدًا للذهاب، لا أصدّق هذه الترهات، هذه مجرّد خدعة، ستظهر الفجوة وسيعود الآن!

وفي لحظة طيش أمسك كتاب «القُلْقُطار» الذي كان لا يزال على مكتب جدّه وكرر الجملة المكتوبة ثلاث مرّات بصوت مسموع، أغضب فعله هذا

أباه وجدّه، فبدأ الجميع يصيح عليه، انبثقت الفجوة السوداء وكادت تسحبه، اقترب «أبادول» ووقف قبالتها ثابتًا كالطود، كان يخرج من جسده ما يشبه الأطياف الملوّنة كلّها تتجه نحو الفجوة لتبتلعها، استند على عصاه بثبات وظل يبسمل ويحوقل وتأمّلها بتمعّن، اتسعت حدقتا عينيه، ثُمّ فغر فاه وبدا وكأنّه يرى شيئًا غريبًا! قال بصوت عالٍ كان له صدى مهيب:

-يا إلهي! أمانوس!

تردد الصوت خلالها وكأنّ تلك الفجوة المعلّقة في الهواء بئر عميق لا نهاية له، قال مرّة أخرى وما زالت عيناه معلّقتين بالفجوة:

-أغلق الممر أيّها الحارس.

ظلت الفجوة تدور وتتضاءل حتى صارت نقطة صغيرة سوداء تلاشت أمام أعينهم، التقطوا أنفاسهم التي كانوا يحبسونها وهم يراقبونه وهو يقف أمامها، التفت غاضبًا ولأوّل مرّة صاح موجهًا حديثه لحفيده «حمزة» وقال وهو يجرّه من ذراعه:

-أيّها الأحمق، كدت تقطع على أخيك طريق العودة، أما تدري أنّك لو دلفت بتلك الطريقة لما صرت محاربًا قطّ، ستكون مثله حبيس شخصية هناك، لن تعرفه ولن يعرفك!

قاطعه «حمزة» بخجل وهو يسير معه وسأله بانكسار:

-ماذا تعني «أمانوس»[1]؟ وكيف أغلقت تلك الفجوة؟ أشعر أنّ رأسي سينفجر.

داهمت «أبادول» موجة من السعال فجأة، يبدو أنّ الجد تأثّر بوقوفه تجاه تلك الفجوة، بدا عليه الوهن! قال وهو يمسح وجهه:

---

(١) أمانوس واحد من أشهر الجبال في جنوب غرب تركيا، ويُطلق عليه جبل النّور.

-«أمانوس» هو اسم ممر من ممرات عديدة كانت بين عالمنا وعالم مملكة البلاغة، أغلقها حرّاس المكتبة من قديم الأزل، ولكلّ ممر منها حارس عظيم، تلك الكلمات التي رددتها «مِسكة» أدت لفتح هذا الممر.

قطع «أبادول» كلامه وقال بحزم:

-هيّا إلى غرفة الأشباح...الآن!

هرول الجميع تجاه غرفة الأشباح، ما زال «حمزة» يتمرّد عليهم، هرعت «مرام» لابنها واحتضنته بقوّة فسكن في حضنها وأغمض عينيه بينما همست إليه بخفوت وهي تحبس دموعها:

-اثبت يا ولدي من أجل أخيك.

مرّت لحظات حرجة على «أنس» وهو يودّع ولده الثاني، ألقوا على عاتق «حمزة» مسئولية إعادة أخيه، وكان أكثر الأبناء تكذيبًا لكلّ ما حُكي لهم خلال أمسيات كثيرة مرّت تحت سقف هذا البيت، وربّما كل الأحفاد لا يصدّقون، لكنّهم لا يجهرون بما يفكّرون به، إلّا «حمزة» كان يقولها صراحة في وجه أبيه وأمّه وجده.

خرجوا جميعًا من غرفة الأشباح، قال «أبادول» بثبات:

-سأبقى معه.

أدار ظهره لهم وتركهم وهم يتبادلون نظرات التعجّب والقلق الشديد، وبقي «أبادول» مع حفيده! وأغلق الباب بنفسه! أنصتا في صمت فسمعا خفق جناحين في الهواء، وصل «الرمادي»، ودلف من نافذة الغرفة ووقف قبالتهما بوقار كعادته. وفور أن رأى «أبادول» قام بضمّ جناحيه في خشوع وأحنى رأسه تحيّة له، اقترب «أبادول» واحتضن الصقّر في مشهد مهيب

اقشعر له بدن «حمزة» وهو يرى الصقر يستطيل بجسده ويبسط جناحيه ويغطي ظهر «أبادول» بريشه، سرت رجفة في جسده وكاد قلبه يقفز من بين أضلعه، تراجع «الرّمادي» ثُمّ قال:

-اشتقت إليك يا «أبادول».

قال «أبادول» بتأثّر:

-وأنا أيضًا يا صديقي.

-لم يكن اللقاء في الرؤى كافيًا...

قاطعه «أبادول» بإشارة من يده ليصمت، وكأنّه أراد أن يخفي شيئًا ما عن «حمزة»، ففهم الصقر وقال وهو يوقّع كلماته حرفًا حرفًا:

-لا بدّ أن نُسرع قبل أن يصل خبرُ اختيارِ الكتبِ حفيدَك إلى «الدّواسر».

ثُمّ أدار رأسه تجاه «حمزة» وقال بصوت يشوبه القلق:

-لقد عاد «الدّواسر» لظلمهم وبطشهم، ولا بدّ أن تساعدنا.

اقترب «أبادول» من «حمزة» ووضع يده على كتفه وطالعه بنظرات تفيض حبًا وقال بصوت يغمره الحنان وهو يُمسك بالكتاب في يده الأخرى:

-أنت أملنا الوحيد الآن يا «حمزة»، وأنا أثق في قدرتك على أداء مهمّتك، لن تحارب فقط لاسترداد تلك القيم التي دوّنت يومًا في هذا الكتاب، بل ستعيد أخاك.

قال «حمزة» بتوتّر:

-وكيف سأعرفه وهو على صورة وهيئة أخرى؟

-هي مهمّة صعبة لا ريب يا «حمزة»، ابحث عنه وراقب من حولك جيدًا، اعتمد على فراستك، وابحث عن علامة ما، ولا تتسرّع.

ثُمّ أردف قائلًا:

-أنت تعرفه جيدًا، ابحث عن الروح لا عن الشّكل، ولا تنخدع بالملامح، وجودك بالقرب منه سيثبّته ويبعث في نفسه الطمأنينة.

وأكمل وهو يمسح على كتاب «حمزة»:

-هذا كتابك، عنوانه «أُوري».

-وماذا تعني؟

رفع «أبادول» حاجبيه وقال:

-كلمة نوبية، وتعني «أجنحة».

-أجنحة صقور؟

أطرق «أبادول» وقال بهدوء:

-وربّما أجنحة كائن آخر! أو رمز لمعنى نبيل...أنت وحدك ستعرفه!

قال «حمزة» وكأنّه اكتشف شيئًا هامًا للتوّ:

-هذا الرمز الذي رسمته«مسكة» في نهاية رسالتها، كان يحوي جناحين يفصل بينهما سيف غريب الشكل...أليس كذلك؟

-بلى، وعليك بقراءة رسالتها مرّة أخرى، لعلّها تُساعدك

قاطعهما «الرمادي» بحركته الفجائية، فالوقت يمرّ، ضرب بجناحه فجأة، ووقف على رأس «حمزة» كما فعل مع أبيه «أنس»، وجدّه «كمال»، وجدّ أبيه «أبادول» من قبل، وبدأت الرحلة التي لم يُعدّ لها «حمزة» عدّته، ولم يحسب لها حسابًا، ولم يصدّق للحظة أنّها ستحدث له! وفور أن اختفى من غرفة الأشباح، شعر الجدّ «أبادول» بدوار شديد، وترنّح وهو يسير تجاه الباب، لقد كان وقوفه أمام فجوة ممر «أمانوس» خطرًا للغاية، وقد جازف لينقذ حياة حفيده. اصطدم رأسه بجدار الغرفة وفقد وعيه في الحال!

3
«وضّاح»

«حمزة».....

مال «الرّماديّ» بجناحه وهو يحلّق فوق مملكة البلاغة، كانت البساتين ترتدي أبهى حللها السندسية الخضراء، منظر فردوسي خلّاب كان يتجلّى كلّما عبرنا جبلًا من الجبال ذات القمم البيضاء التي كانت تتوالى من تحتنا وكأنّها تسلم علينا ثُمّ على بعضها البعض في تناسق بديع، من بعيد كانت أشجار القيقب بأوراقها الملوّنة تتوزّع بشكل بديع، مررنا بكوكبة عظيمة من الصقور بدت وكأنّها تحيي «الرّماديّ» وهو يحملني، بدا وكأنّ بينهم وبينه إشارة مُتَّفقًا عليها!

ابتعدوا وهم يشكلون خطوطًا منتظمة ومتوازية يتقدمهم زعيمهم وكأنّه يقود لواء حرب ما!، وفجأة! تبعثروا في سماء مملكة البلاغة كلّ منهم في اتجاه مختلف، ينخفضون ويرتفعون بتكتيك منتظم وكأنّهم يواروننا عن الأنظار، زاد «الرّماديّ» من سرعته وضمّ جناحيه إلى جسده وانطلق كقذيفة المدفع تجاه الشرق فشعرت بقلبي وهو يهوي، ثُمّ بسط جناحيه مرّة أخرى وعرج على أرض عفراء[1] مترامية الأطراف وبدأ يحلّق فوقها في دوائر، كنت مشدوهًا وعيناي مفتوحتان على وسعهما، قلبي يتواثب في صدري من هول ما أراه وأعيشه، سألته وصوتي يرتجف:

-لماذا ابتعدت عن تلك البساتين؟

-سنهبط هنا.

قلتُ باستنكار:

---

(١) العفراء هي الأرض البيضاء التي لم توطَّأْ.

-ماذا! في هذه البقعة الخالية من البشر! أين قصر «الحوراء»؟ وأين النهر الأخضر؟ ومتى سألتقي بالمغاتير و«الزاجل الأزرق»؟

قال بحزم شديد:

-ليس الآن فرحلتك تختلف عن رحلة أبيك،كما أنّهم لا يعلمون بخبر وصولك.

-كيف هذا؟!

صمت هنيهة وقال بنبرة يشوبها القلق:

-طُلب مني بشكلٍ رسمي وسريّ أن أُحضرك إلى «الوادي الأبيض» لحمايتك.

سألته متوجسًا:

-ومن طلب منك هذا؟ ولتحميني ممن؟

قال شارحًا بصوته العميق:

-حرّاس المكتبة علموا بترصّد «الدّواسر» لأحفاد «أبادول» بعد ما حدث منذ عشرين عام تقريبًا، ووصَلهم خبر فتح ممر «أمانوس» مرّة أخرى، كما أنّهم يَعرفون بالتأكيد بخبر اختيار الكتب لك كمحارب، فقرر كبير الحرّاس حمايتك بإخفاء أمر وصولك لأرض المملكة حتى عن «المغاتير» فلا بدّ أنّهم الآن مراقبون من قِبل «الدّواسر»، لتتمكن من أداء مهمّتك أيّها المحارب.

جُلت بعينيّ في المكان وقلت:

-لا أرى أيّ أثر للبشر هناك!

-لا تقلق، فعلى هذه الأرض العفراء ستلتقي بالسيّد «وضّاح».

-ومن هو السيّد «وضّاح»؟

أصدر غقغقة طويلة ثُمّ قال:

-إنّه حارس ممر «أمانوس»، الذي كانت بدايته تلك الفجوة السوداء التي ابتلعت أخاك، لقد علم هذا الحارس هويّته، فكلّ من يمرّ من تلك الممرّات تظهر صورة وجهه مع اسمه في كتاب خاصّ بالمكتبة العظمى، أخوك ليس محاربًا الآن، لكنه زائر، والزوّار هنا يستضيفهم البعض من أهل المملكة بطريقتهم الخاصّة، وآخر زوّار ممر «أمانوس» كان امرأة تُدعى «مِسكة»، وأظنّك تعرفها.

قلت بثقة:

-بالتأكيد أعرف قصّتها.

- لكنّنا لا نعرف في أيّ شخصيّةٍ وهيئة حلّ «خالد» على أرض مملكة البلاغة هنا بعد عبوره من «أَمَانوس»، فهذا الأمر ما زال غامضًا لحرّاس الممرّات، ولنا جميعًا، لهذا كان قرار إغلاق تلك الممرات حتمي منذ سنين طويلة، لأنّها تعرّض من يزور المملكة للخطر، وتعرّض أهل المملكة هنا للخطر أيضًا.

شعرتُ بالضّجر فسألته:

-وهل لكلّ ممر من تلك الممرّات حارس واحد فقط؟

-نعم؛ وهو من حرّاس المكتبة العظمى القدامى ذوي الشأن العظيم والمكانة المتميّزة.

بدأ «الرّمادي» يخفف من سرعته ويهبط تدريجيًا شيئًا فشيئًا حتى لامست أقدامي الأرض، تركني فجأة فسقطت على ركبتيّ بينما ارتقى هو في السماء وهو يصدر غقغقة غريبة كان لها صدى مهيب في الأجواء، وكأنّه ينذر أحدهم بوصولي، استندت على الأرض لأقف فتعفّرت يداي، فوقفتُ أنفض التراب عنهما وعن بنطالي وأنا أتأمّل «الرّمادي» وهو يبتعد، لا بد أنه تخطى التسعين من عمره كما تخطاها «أبادول»، يا له من صقر قويّ، كيف يصمد حتى الآن!

استدرت فلم أجد سوى أرض عفراء واسعة مبسوطة أمام عيني إلى ما لا نهاية، خالية من النباتات، ومن الحيوانات، ومن البشر! شعرتُ بوحشة شديدة واستبدّ بي القلق، فقررتُ أن أبدأ السير.

كان الجوّ يزداد برودة كلّما توغّلتُ في طريقي اللا منته بتلك البقعة الموحشة من أرض مملكة البلاغة، كاد اليأس يفتك بيٍ لولا صوت صهيل الجواد الذي تناهى إلى سمعي فصرت أتلفّت يمينة ويسرة باحثًا عن اتجاهه، من بعيد كان هناك كهل يقترب على صهوة جواد عظيم الكراديس، كان يبدو مهيبًا وهو يمسك بزمام جواده يركض كالإعصار، لحية طويلة بيضاء كالحليب، يرتدي قباء[1] سماوية اللون مفتوحة عند الرّقبة، يطلّ منها عنق عريض يدلّ على قوّة صاحبه وإن كان كهلًا! أكمام القِباء محلّاة بخيوط فضية تبرق تحت أشعة الشّمس، وكان يتمنطق[2] بحزِام أبيض عريض، بينما تغطي رأسه قلنسوة[3] زرقاء مطرّزة وعلى كتفيه ينبسط طيلسانٌ[4] عاجي اللون، اقترب في عجلة وكان يبدو عليه الانزعاج الشديد، حيّاني بصوت يختلج وترجل عن جواده بقفزة واحدة أثارت إعجابي، ووقف يتأمّلني بعينيه العميقتين، وقال وهو يلتقط أنفاسه:

-مرحبًا أيّها المحارب.

قلتُ وقد بدأ القلق يتسرّب إلى نفسي عندما رأيته يتلفّت خلفه ويراقب الجهة التي أتى منها:

-مرحبًا...من أنت؟

-«وضّاح».

---

(١) قَباء:ثوب يلبس فوق القميص ويتمنطق عليه.

(٢) يتمنطق: يرتدي حزامًا.

(٣) قلنسوة:لباس للرأس.

(٤) طيلسان:شال أو وشاح يضعه العلماء على الكتفين.

قلت بعصبية لم أفلح في إخفائها:

-أخبرني أبي ألّا أتسرع في دخول عوالم المملكة قبل أن ألتقي بالحوراء و«الزّاجل الأزرق»، فلم تخفون عنهم أمر وصولي؟

زفر «وضّاح» وقد ارتسمت على وجهه ملامح القلق الشديد وقال وهو يهزّ رأسه:

-كان لا بدّ من هذا، فـ«الدّواسر» يتتبعون أخبارك ولو علموا بأمر وصولك سيطاردونك حتى يختطفوك وينتقموا من «أبادول».

-وكيف سأبدأ رحلتي إذًا؟

أشار «وضّاح» لجواده وقال لي:

-اركب هذا الجواد بسرعة، هو يعرف الطريق، فهناك من يلاحقني، وأخشى أن يراك ويتعرّف عليك.

سألته بفضول:

-هل هذا الجواد من خيول الكحيلان؟

رفع حاجبيه ثُم اقترب وربّت على كتفي وقال:

-لا...ليس منها!

سألته بتلهّف:

-كيف سأتعرف على أخي وهو في هيئة أخرى؟

-ابحث عن جوهره، تلك الروح التي ترفرف بين جنبيه وتعرفها، ولا تلتفت للظاهر فقط، واحذر أن تُخدع فتفقده على الطريق.

ثُمّ قال «وضّاح» وهو يتعجّلني:

-أسرع يا بنيّ، فقد تركت خلفي من يُلهي الجواسيس عن تتبعي، ولعله لم يصمد!

تحسستُ كتابي الذي كُنت أخفيه تحت قميصي، فقال السيّد «وضّاح» وهو يخلع عن كتفه حقيبة قماشية ويسلّمها لي:

-لا بدّ أن تغيّر ملابسك تلك حتّى لا تلفت الأنظار إليك، هنا ستجد ما يناسبك، خذ هذه الحقيبة واركض بفرسك نحو الشرق، ولا تنسَ ..ضع كتابك في الحقيبة، ولا تظهره لأحد.

ثُمّ ساعدني لأركب الجواد وسألني:

-أين خنجر جدّك؟

شعرت باضطراب شديد، لم يمنحني «أبادول» خنجره المميز، وتلك الأشياء الأخرى التي أعطاها لأبي من قبل ليستعين بها خلال رحلته، تلعثمت وأنا أجيبه، لكنّ الكهل أراد أن يطمئنني فقال وهو يغرس عينيه في عينيّ بثقة:

-أنت من يُقرر أنّه ليس هناك ما يجعلك تحيد عن كونك مُحاربًا، لا تظنّ أنّك عاجز بلا أدواتك وأسلحتك، ما هي إلّا جمادات، فتّش أوّلًا عن روح المُحارب بداخلك، ثق باللّه ثُمّ بإرادتك واعثر على أدواتك بنفسك، لكلّ محارب مميزاته الخاصّة، ولديك مميزات ستكتشفها بنفسك، هيّا انطلق بالجواد قبل أن يراك أحد جواسيس «الدّواسر».

ثُمّ ضيق عينيه وقال:

-احذر الخوف الشديد، والفزع الشديد، والانكباب على الشهوات.

-ماذا تعني؟

-«الدّواسر» يطوفون في كلّ مكان، وهم مخلوقات لها القدرة على احتلال أجساد الآخرين هنا عندما يتعرّضون لهذه المواطن الثلاث لأنّهم يكونون في أضعف حالاتهم، فيتمكن «الدّواسر» من إحلال كياناتهم الأثيرية فيها.

-وكيف سأنجو منهم؟

-حصّن نفسك.

-كيف؟

-كن مع الله...وستنجو، وانتبه...فمملكة البلاغة هي مملكة المتعة والمعاناة في آن واحد، هنا الصّراع بين النقيضين، والتناطح بين الأضّداد.

ثُمّ ضرب بكفّه على ظهر الجواد فانطلق كالإعصار وهو يحملني، كان يركض بسرعة شديدة وكنت أتلجلج على صهوته فاحتضنت عنقه لأثبت، بدأ يثير خلفنا سحبًا من الغبار هنا وهناك، التفتُ أبحث عن «وضّاح» فرأيت طائرًا عظيم الجناحين وكأنّ على رأسه تاجًا غريبًا! كان يحلّق فوقه ثُمّ انخفض ليحمله ويطير به كما فعل بي «الرّمادي» تمامًا!

مرّ ما يقرب من الساعة والجواد لا يتوقف عن الرّكض، وكنت أحتضن عنقه مستسلمًا، وأخيرًا توقف الجواد فجأة، كانت حدود أرض الوادي الأبيض قد انتهت عند تلك النقطة، ترجلتُ ولاحظت الأحجار البيضاء المرصوصة بجانب بعضها البعض على حدوده، تذكّرت كيف كان أبي يعبُر من بقعة لآخرى فوق تلك الحدود بأرض المملكة، أمّا أهل المكان فكانوا لا يستطيعون عبورها، فالتفتُ تجاه الجواد ومسحتُ على رأسه وألصقت جبهتي بعنقه وقلت هامسًا:

-شكرًا لك أيّها الجواد الأصيل.

صهل الجواد ورفع رأسه وكأنّه يحييني، تمنّيتُ لو تحدّث إليَّ كخيول «الكحيلان» لكنّه لم يفعل للأسف. عبرتُ حدود الوادي الأبيض وبدأت رحلتي سيرًا على الأقدام، تُرى كيف سأتعرف على أخي «خالد» وأين هو الآن؟

طال المسير، وبعد ساعات من السير بدأتْ الأرض أخيرًا تخضرّ تحت أقدامي شيئًا فشيئًا، القليل من الأشجار القصيرة هنا، وأخرى

ساقطة الأوراق هناك، نخيل سعفها عظيم ورائع تطل من بعيد، وعشب كثيف ناعم كالبساط الأخضر يمتدّ على أحد الجانبين، بدأتُ أرى بعض الخيم على مقربة من البقاع التي يكسوها العشب، لاح لي من بعيد بعض رعاة الغنم، تذكّرت أنّني لم أبدّل ملابسي بعد، فتوقّفتُ لدقائق وفتحت الحقيبة القماشية، وبدأت أخلع بنطالي وقميصي وحذائي الرّياضيّ، كُنت أفعل هذا وعيناي معلّقة بالسّحب في السّماء، يبدو أنّها ستمطر قريبًا! كانت الملابس التي أعطاها لي السيّد «وضّاح» من الكتّان الأبيض، لعلّني الآن أشبه أبي عندما وصل إلى مملكة البلاغة وارتدى مثلها في كوخ العجوز «ناردين» بالغابة المسحورة، وجدتُ حذاء من الجلد فانتعلته على مضض، لم يُعجبني الحذاء أبدًا، ولم تُرحني تلك الأربطة الكثيرة التي لا بدّ من عقدها لتثبيته على قدمي، لكنّني مضطر لارتدائه. دفنت ملابسي في حفرة عميقة تحت شجرة بلوط عتيقة، وسرت تجاه رعاة الغنم، فقد جفّ لساني من شدّة العطش بعد سيري لمسافات طويلة، كُنت أتوق لشربة ماء، ترى أين أخي «خالد» الآن؟ وهل هو بخير؟

شعرت بالكتاب يهتزّ في حقيبتي، فأخرجته لكي أقرأ أوّل جملة بدأت كلماتها تظهر تباعًا أمام عيني:

«قد تكون حكيمًا كالهداهد، أو جميلًا كالطواويس، أو ذكيًا كالغربان، أو قوي الشكيمة كالنّسور، أو حادّ البصر كالصقور، وربّما رقيقًا كالبلابل ولطيفًا كالعصافير، أو رشيقًا كالنورس، وثائرًا أبيًّا كالوَرَاشين، لكنّك أبدًا لن تطير بجناح واحد، فالزم أخاك، فأنتما جناحان، واضرب بجناحك لتلحق به، ولا تعجز، تكفيك وثبة واحدة نحو السّماء، ثُمّ رفرفة سريعة، وابسطهما قبل أن تُسْلِم نفسك للرياح لتحملك حيث تشاء، ولا تقاومها، وإن شعرت بالخطر، فاقبضهما واحذر».



4
شعب أُوركا

فيلق من الفراشات الزرقاء يحلّق برشاقة قرب سطح البحر اللازورديّ الفتّان. وكأنّه يشاكسه بأقدامه الدقيقة، لمسة خفيفة لسطحه اللجيني كانت تكفي لإثارة غضب البحر، ثُمّ يرتقي «الفراش» في جماعات، ويترك الموج ثائرًا وهو يصطفق مع بعضه البعض بعنفوان، وينثر بعض الرذاذ البارد في الهواء، ثُمّ يعود لهدوئه، وسحره، وسكينته.

تحت سطح الماء كان غناء «حيتان أوركا»[١] ينساب شجيًا مُهدهدًا لسطح الماء، بجمالهم الأخّاذ وقوّتهم الظاهرة وألوانهم البديعة كانوا يعيشون في جماعات، يمخرون عباب البحر ويتنقلون في أسراب، يصدرون صفيرًا مميزًا بتمرير الهواء بين أفواههم والفتحات التي في رؤوسهم فيما يشبه الجوقة الجماعية، لو أنصتّ إليهم وكُنت تفهم لغة الأُوركا لأحببتهم.

كانت تلك الحيتان تتحوّل لهيئة البشر كلّ شهر قمري خلال الليالي الحنادس[٢] في نهاية الشهر.

وكانت تلك الأيّام الثلاث التابعة لليالي الثلاثة بمَثابة مغامرة لهم، حيث يُلقون بأجسادهم على الشواطئ في شكل جماعي، وسرعان ما يتغيّر كلّ منهم لهيئة بشرية ذكرًا كان أو أنثى، عرف أهل مدينة «وَرَاشين»[٣]

---

(١) أوركا: الحوت القاتل أو السفّاح، وهو حيوان ثديي مائي، يمتاز بلونيه الأسود للظهر والأبيض للبطن والجوانب، تصبح مفترسة إذا شعرت بالخطر.

(٢) ليالٍ حنادس: أي شديدة السواد لغياب القمر حيث تسبق ظهور الهلال مباشرة.

(٣) «وَراشين» جمع وَرشان وهو طائر من فصيلة الحمام، يستوطن في جماعات ويهاجر إلى العراق والشّام، وهناك مثل يضرب به (بعلّة الوَرشان يؤكل رطب المشان) وهو يُضرب لمن يظهر شيئًا والمراد منه شيء آخر.

المجاورة هذا فكانوا يراقبونهم خُلسة، ثُمّ نشأت بينهم علاقات من نوع خاصّ، في البدايةكانوا يضعون لهم الثياب في الليلة الثامنة والعشرين من كل شهر، ثُمّ يختبئون خلف الأشجار ليراقبوهم من بعيد نظرًا لشراستهم وعنفهم في التعامل مع البشر. ثُمّ بدأوا يتكيفون مع الوضع، وشيئًا فشيئًا تعلّموا لغة البشر وصاروا يتعاملون بها مع النّاس بدلا من الصيحات التي كانوا يصدرونها والتي عُرفت بلغة الأوركا، أما بينهم فكانوا يفضلون لغتهم الخاصّة، صفير وصيحات مميزة مصحوبة باصطكاك الفكّين معًا، هم فقط من يفهمها. كانت نساء حيتان أوركا ساحرات للُب الصيادين، فُتنوا بهن، والبعض استغلهن وأساء التصرّف، وكان من يخطئ في حقهن يُعاقب بعد مرور الليالي الثلاثة الزُّهر[١] من أوّل الشهر القمري الجديد..

حيث كانت أنثى الحوت تنتظره في صورتها ككائن بحري شرس وتترصّده حتى يخرج بقاربه للصيد وتلتهمه إن كان قد غدر بها أو آلمها بأيّ طريقة عندما كانت على هيئة البشر. بمرور الوقت صارت الحيتان في هيئتها البشرية الجديدة أقوى، وصمدت عليها لفترات أطول، وزادت على الليالي الحنادس الثلاثة وامتدت لأسابيع عديدة، ثُمّ لشهور طويلة، حتى وصلت لعام كامل، ثُمّ أعوام!، والآن صار الأمر اختياريًا، إن أحبّ الحوت البقاء على اليابسة فليفعل، وإن فضّل البقاء بماء البحر فليفعل وليقفز فورًا في الماء ويغوص في أعماقه، يغوص، ويغوص حتى يصل إلى قاع البحر حيث العمق الشديد، وحيث تبتلع ظلمة البحر كلّ شيء، ليمتصّ جسده الماء ويتمدد جلده، وتنتفخ عضلاته، وينتفض ويتغيّر، ليستعيد هيئته كحوت مرّة أخرى. عُرفوا بشعب «أوركا» وصارت لهم قرية كبيرة خاصّة بهم على ساحل البحر، تزاوجوا وأنجبوا، ومن نسائهم من تزوجت ببشري أصيل، وعاشت خارج القرية الخاصّة بشعب «أوركا».

---

(١) الليالي الزّهر أي الليالي الثلاثة الأولى من الشهر العربي، والتي يظهر فيها الهلال.

كان لا بدّ من وجود حاكم لشعبهم، فتم انتخاب الملك «قاموس»[1] وزوجته، ليحكما شعب «أوركا» ويشرّعا القوانين الخاصّة بهم بالمشاركة مع بعض كبار شعب الأوركا المميزين، صنعوا للملك تاجًا من المرجان، وصارت له الكلمة وشرف القيادة.

غضب الملك «قاموس» عندما علم بقصّة الحب التي نشأت بين ابنته وبين شاب من شباب مدينة «وَرَاشين» يدعى «رَجْوان»[2]، وكان «رَجْوان» أحد الشباب الصّالحين الذين كانوا يعلّمون شعب أوركا لغة البشر، لم تستجب الأميرة «أهاليل»[3] لنهي والدها إيّاها عن الزواج به، وتزوجته بالفعل رغم رفض أبيها ورحلت معه إلى مدينة «وَرَاشين». وكذلك فعل أخوها، فقد رحل ليتزوج من حبيبته التي التقى بها في مدينة «وَرَاشين» أيضًا، وعاش معها معيشة البشر في مكان بعيد...بعيد جدًا، واختفى الاثنان بعد الزواج ولم يظهرا مرة أخرى. مرّت الأيّام وشعب «أوركا» يتنقل بين البحر واليابسة، ولم يتعرّضوا للخطر أبدًا. ورغم الرغد الذي كان يعم أجواء القرية، والحياة الطيّبة التي كانوا يعيشونها، كان ملكهم «قاموس» حزينًا لرحيل ابنه وابنته.

صارت مدينة «وَرَاشين» المجاورة لقرية «أُوركا» ترزح تحت موجة من الأحداث التي تسببت في الكثير من التغيّرات في كلّ شيء، طريقة الحكم، تنظيم الأمور، وحتى عاداتهم في الزواج، بل وصفاتهم الوراثية، فمنذ أن ظهر شعب «أوركا» النازح إليهم من قريتهم القابعة على ساحل بحر «حندس» وهم في شأن جديد، خاصّة بعد ثبات قدرات هؤلاء النازحين على التحول إلى بشر واستقرارهم على البرّ. وفَعل الحبّ أفاعيله،

---

(١) «قاموس» تعني البحر العظيم.

(٢) «رَجْوان» اسم علم مذكر بمعنى الرّاجي والآمل.

(٣) «أهاليل» الأمطار الشديدة، ويقال: هلّ السّحاب بالمطر، وهلّ المطر هلاً، وفي حديث الاستسقاء فألّف الله السّحاب فهلّتنا.

شباب مدينة «وَرَاشين» تزوجوا من بنات «أُوركا» الفاتنات، وبنات المدينة قبلن بالزواج من شباب «أوركا» ذوي العاطفة الجيّاشة، والأذرع مفتولة العضلات.

كان شعب «أُوركا» من تلك الشّعوب الصّاخبة، التي تعشق الاحتفالات والاجتماعات، منفتحًا في تعاملاته، يحب السير في جماعات، والعمل في جماعات، والصيد في جماعات، وكانوا يدللون النساء، أمّا شعب مدينة «وَرَاشين» فكانوا يميلون للهدوء والغموض والخصوصية الشديدة، وكان رجالهم شديدي الغيرة على نسائهم، ويعاملونهن بقسوة شديدة قد تصل لبيعهن في الأسواق، وتسبب هذا في صدام بين الشعبين في الكثير من الأحيان، وكان لا بدّ من حدوث هذا، فالطباع تختلف!

في البداية، كانت قصة زواج ابنة الملك «قاموس» حاكم شعب «أُوركا» من «رَجْوان» غريبة، أمّا الآن فقد صار الأمر عاديًا، وبعد توسّع قرية «أوركا»، ونزوح المزيد من شعبهم إلى مدينة «وَرَاشين» القريبة منها، وتوغلهم في البناء الاجتماعي لها، وتزاوجهم وتناسلهم، ازداد الصراع والتشاحن، وانقسم النّاس إلى ثلاث فئات، شعب «وَرَاشين»، وشعب «أُوركا»، والهجناء[١] وتصاعد الصراع على الحكم والسلّطة، وبدأت حوداث الغدر والقتل تظهر، فهناك من يكره أن ينافسه أحد في حكم تلك المدينة، حتى ولو كان شقيقه الذي هو من لحمه ومن دمه...

وذات ليلة، تعرّض شعب «أُوركا» لهجوم من عشيرة من الجنّ علموا أنّها تسمّى «الدّواسر»، فتصدّروا لهم برًّا وبحرًا، خرج «الدّواسر» بداية في صورتهم البشعة، فأصابوهم بالرّعب، فقتلوا الكثير من شعب «أوركا»، ففرّ آخرون منهم وعادوا لماء بحر «حِنْدس» مرّة أخرى ليعودوا إلى

---

(١) الهجناء هم الأبناء من أب متحوّل من شعب أُوركا وأُمّ بشرية، أو من أمّ متحوّلة من شعب أُوركا وأبّ بشريّ.

أصولهم كحيتان، أمّا من صمدوا على اليابسة فلم يحسنوا إدارة المعركة معهم، وكيف لهم أن يُحاربوا كيانات أثيرية لا تُلمس ولا تُحس بأياديهم!

حاول «الدّواسر» أن يسكنوا القرية فحلّوا في أجساد أفراد الشعب البشرية بكياناتهم الأثيرية، وخاصّة ذوي النفوس الضعيفة التي يقهرها الخوف أو الفزع، الخوف من الوحوش الأخرى، ومن الموت، ومن المرض، ومن الفقد، ومن الظلام، وكانت هذه هي نقطة الضعف والثغرة أو البوابة التي يتسلل منها «الدّواسر» لجسد أي مخلوق آخر. سيطر «الدّواسر» بالفعل على بعضهم وتحدّثوا بألسنتهم، فانقسم شعب «أوركا» على نفسه، ووقف الأخ مواجهًا لأخيه، يهاب أن يطعنه لأنّه يعلم أنّه لا يتحدّث بلسانه بل بلسان أحد الدّواسر الذي احتلّ جسده، وكان هذا أمرًا شديدًا على أنفسهم.

قرر الملك وقف القتال، واجتمع الشعب على قرار واحد، أن يطردوا هؤلاء المأسورين بأجسادهم والملبوسين بأرواح الدّواسر من قرية «أوركا» ليعيشوا في مكان آخر حتى يتخلّصوا من أسر «الدّواسر» لأجسادهم ويعودوا إلى رشدهم، فطاردوهم حتّى فرّوا إلى وادي «الفراديس» وبعد وصولهم للوادي طردوا سكّانه من أهل النّوبة وغيرهم، واحتلّ «الدّواسر» أيضًا بعض أجساد النوبيين من ضعاف النفوس والخائفين منهم، فازداد عدد «الدّواسر».

جمع الملك «قاموس» شعبه ليتشاور معه، فالآن شعب «أُوركا» يحتاج لعون أهل مملكة البلاغة ليتغلّب على «الدواسر» ويسترد أفراد شعبه مرّة أخرى، فمنهم الأبّ، والأم، والابن، والابنة، ممن كان خوفهم سببًا في وقوعهم في أسر «الدّواسر»، لم يقف حاكم مدينة «وَرَاشين» وشعبه معهم لصدّ هذا العدوان، فهم يخافون من «الدّواسر»! ويحسبون الحساب لمواجهتهم. سمع الجميع عن «أبادول» وما فعله بتلك العشيرة قديمًا عندما تغلّب على خوفه فما عاد لهم سلطان عليه، وتمنوا لو عاد

لليلة واحدة ليخلصهم منهم، وتعود لهم حياتهم الرغدة مرّة أخرى. صارت البيوت في وادي «الفراديس» تضج بأصوات «الدّواسر» الذين يعيشون في أجساد البعض من شعب «أوركا»، و«الدّواسر» عشيرة الجن التي لا يُستهان به.

يا لهم من عشيرة قميئة، لقد تمكنوا من الهرب من زنازينهم التي سُلسلوا فيها لسنوات تحت جبل عظيم، والآن هم أحرار ولا بدّ من الاحتفال.

أقيم عرش زعيمهم «قلب العقرب» وسط قصر عظيم يطلّ على النهر الذي يقطع وادي «الفراديس»، اصطفّ «الدّواسر» في حلقات حول زعيمهم، تعالت همهماتهم وهم يصدحون باسمه ويرفعون كفوفهم وهم يؤدون طقوسهم الخاصّة، الآن هم أقوى، الآن هم أكثر شراسة من ذي قبل، والآن سيستطيعون استعادة أمجادهم القديمة، وسينتقمون يومًا من «أبادول».

5

«هُرهُور»

يا لها من رؤيا جميلة، رأى الغلام نفسه حوتًا صغيرًا أبيض، وكان يسبح في الماء مع سرب عظيم من الحيتان، ما أروع هذا الشعور! قرّبت خالته فمها من أذنه وهمست قائلة:

-قُم يا «هُرهور» قبل أن يوسعك «كُوكُون» ضربًا بالسوط.

قفز المسكين من فراشه الّذي كان عبارة عن كيس مخيط من جلد الماعز محشوّ بالليف وأوراق الشجر، وكانا في غرفة بسيطة، قال ودقّات قلبه تتواثب خوفًا وذُعرًا وكأنه يركض هاربًا من وحشٍ يتتبعه:

-قُمتُ ...قُمت يا خالة.

التفتَ تجاه المرآة المكسورة والمسنودة على جذع شجرة في أحد أركان الغرفة، واقتربَ منها وتأمّل انعكاس صورته فيها، وجه أبيض مستدير ومشرّب بالحمرة، وعينان واسعتان ممتلئتان بالخوف، وأنف أفطس يعلوه النّمش، وجسد هزيل وضعيف، وقف يُحملق في وجهه ويتحسس حلقات شعره الأسود، وتكررت الأسئلة التي طالما ترددت في رأسه...

لماذا لا يُشبه خالته أم «كُوكُون» وابنها؟ ولماذا لون بشرته لا يُشبه لون بشرة كلّ من بالقرية؟ ولم يعامله البعض وكأنّه نكرة! ويسخرون من شكله وهيئته، وأحيانا يرفض الغلمان الآخرون اللعب معه، ينعتونه أحيانا بألقاب بذيئة، ويسبّون أمّه التي لا يَعرفها! يقولون إنّه لقيط، وربّما هو لا يعرف معنى تلك الكلمة على حقيقتها حتى الآن. تمنّى كثيرًا أن تكون بشرته سمراء كأبناء النوبيين هنا، فهو يُحبُّ من يُحسنون إليه منهم، وخاصّة الشّاب «مُولي» فهو يعامله بلطف شديد، والكثير من أهل القرية أيضًا، لكنّه لا يدري لماذا هو في بيت «كُوكُون» وأمّه بالذّات! أسرع يحمل جرّة من الفخّار وخرج من الدار راكضًا نحو بئر قريبة وسط المراعي التي تحيط القرية، كان الوقت فجرًا والطرق خالية من العابرين، رأى الغنمات بجوار خيمة كبيرة تخصّهم، كانت منصوبة بجوار باقي خيم الرّعاة، كان قلبه يرتجف وهو يركض، يخشى أن يستيقظ «كُوكُون» قبل أن يجلب له الماء، كان يخافه، فقد بدأ يضربه بالسوط، لم تعد الصفعات التي تتوالى على وجه الغلام الصغير بكفّه الغليظة تشبع جوع نفسه الخبيثة، وكأنّه ينتقم منه!، تحسس الغلام كتفه فشعر بألم شديد، كشف قميصه فوجد آثار الضرب بالسوط تشكّل خطوطًا حمراء على جلده، كان «كُوكُون» يكره تلك النباهة التي بدأت تظهر على الغلام، كلماته الفصيحة وردوده عليه أصبحت تستفزّه، وصار الضرب بالسوط أقوى وأعنف. ركض خائفًا وحزينًا، فانهمرت دموعه عندما وصل للبئر،

ملأ الجرّة بالماء، وانحنى ليحملها فرأى انعكاس وجهه على صفحة الماء، عاد لحيرته، لماذا لا يشبههم؟

حمل الجرّة وهرول نحو القرية، انسكب نصفها في الطريق لأنّه كان يترنّح من شدّة التعب، أنزلها أمام الدار ودلف غرفته فوجد المرآة أمامه مرّة أخرى تُذكّره بملامحه ولون بشرته الذي كان سببًا في ألمه! فسالت دموعه، وجلس يُفكر في اسمه، وسأل العجوز وهي تمر بجواره:

-لماذا أسميتني «هُرهور»[1]؟

التفتت نحوه وطالعته بنظرات دهشة وقالت:

-أتتذاكى عليّ يا غلام؟

ثُمّ سكتت هنيهة وقالت:

-يبدو أنّك كبرت، لأوّل مرّة تسألني هذا السؤال!

ثُمّ اقتربت منه واحتضنت كفه بكفيها المجعّدتين وقالت:

-لا بدّ أن تعرف الحقيقة الآن.

تسارعت دقّات قلبه وسألها:

-أيّ حقيقة؟

دمعت عيناها وقالت هامسة:

- لقد أطلقتُ عليك هذا الاسم لأنني عثرت عليك تحت أشجار العنب بين هراهير العناقيد الساقطة على الأرض، قرب ينابيع مدينة «وَرَاشين» العجيبة، تركتكَ أمّك تحت شجرة بالقرب من تلك الينابيع فور ولادتك مباشرة، أو ربّما ماتت لا أدري!

---

(١)هرهور العنب هو ما تناثر من أصل عنقود العنب، ويطلق أيضًا على نوع من السّفن، ويقال هرهور الماء لصوت الماء وهو يتدفّق كثيراً.

انقبض قلبه عندما ذكرت أمّ «كُوكُون» كلمة الموت، فهو وإن لم يعرف أمّه تلك من قبل! فمجرد تخيّل موتها أفزعه، أضافت العجوز بتأثّر:

-سمعت البكاء فهرولت نحوك، وكنّا وقتها نحمل متاعنا ونسير على الطريق فقد أخرجونا من بلادنا جبرًا وقهرًا، ودّعنا وادي «الفراديس» وانطلقنا فارّين إلى قرية «كروسكو»[1] هنا، كُنت عاريًا وترتجف من شدّة البرد يا صغيري، غسلت جسدك بماء الينابيع وأزلت عنك آثار دماء كانت عالقة بك، وحملتك فسكنت في حضني، فخبأتك تحت خماري وأخذتك إلى خيمتي، عندما وصلنا لقرية «كروسكو» أعلنت أنني عثرت في الطريق على رضيع وأنني سأربيه، وربّيتك حتى صرت هُرهوري الحبيب.

سألها بعفوية وهو يتمعّن في وجهها:

-لماذا لم تعيدوني إلى هناك.

-أتعرف تلك المراعي التي تخرجون إليها بالغنمات؟

-أعرفها!

-لا يجرؤ أحد على تخطيها.

-لماذا يا خالة؟

-لم نخرج من تلك البقعة منذ وصلنا إليها بسبب طيور الوَرَاشين.

-كيف؟

-كلّما همّ أحدهم بالخروج في رحلة تجارة أو أيّ شيء هاجمته طيور الوراشين، فيعود مذعورًا ولا يُكررها.

وهنا دلف «كُوكُون» بقامته المديدة، وصرخ بصوته الأجشّ في وجه الغلام، وبدأ يضربه بالسوط لأنّه لم يملأ الجرّة كما ينبغي، لم يعلم أنّه سكب نصفها من التعب وهو يركض نحو الدار. كان الغلام كخادمه

---

(١) «كروسكو» اسم قرية نوبية بمصر.

الخاصّ، يقضي نهاره في قضاء حوائجه، يسكب على يديه الماء ليغتسل قبل أن يذهب لعمله، ثُمّ يخرج مع الغنمات مع أبناء القبيلة من الغلمان ممن يعملون برعي الغنم في المراعي القريبة التي لا يجرؤ أحد منهم على تخطيها، يهرب مع الغنمات من جحيم سوطه، وكانت العجوز الحانية القلب ترفق به وتدس له التمرات في جيب قميصه البالي ليقتات عليها نهارًا، وعندما يعود كانت تطعمه العسل والفطير، كانت حنونة، تظنّ أنّ هذا سيعوضه عن قسوة «كُوكُون»، أحبّها كثيرًا وأحبّته، لكنّها لم تفلح في منع ابنها «كُوكُون» من جلده بالسوط، لهذا كان ساخطًا عليهما.

كان اليوم طويلًا، مرّ الوقت ثقيلًا على قلبه الصغير، فهو «هُرهور» الحزين الذي يكرهه الغلمان لأنّه كالح البشرة ولا يُشبههم، كان يهشّ على الغنمات خارج قرية «كروسكو» ويكفكف دمعه بطرف كمّه عندما رأى شابًا يرتدي ثيابًا من الكتّان ويحمل حقيبة قماشية ويسير نحوه...

يا إلهي! ما هذا؟ لون بشرة الشّاب يشبه لون بشرته! ركض نحوه بأقصى سرعته، كان متلهفًا للحديث معه، فقد كانت رؤية وجهه كشربة ماء بعد ظمأ طويل، ليس غريبًا بعد الآن، ليس وحيدًا، ليس شاذ الشكل يا أهل القرية!

ربّت الشّاب على رأسه وسأله بحنان بعد أن ألقى التحيّة:

-ما اسمك؟

قال الغلام بخفوت:

-«هُرهُور».

-وأنا «حمزة».

ودّ أن يُخبره أنّه خائف، وحزين، ويشعر بالغربة، لكنّه خجل منه، فوقف ساكنًا كالصّنم يتأمّل ملامحه، سأله «حمزة» شربة ماء، فأسرع إلى حيث كان يجلس ليراقب غنماته، وأحضر له قربة الماء التي كان

يحملها، شرب «حمزة» حتّى ارتوى، والتفت إلى «هُرهُور» بثغره البسّام، اقترب رفاق «هُرهُور» من رعاة الغنم وبدأوا يراقبونهما بفضول شديد، كانوا ينقّلون أعينهم بين وجهيهما، وكان «هُرهُور» يضحك كالمجنون، التفّوا حول «حمزة»، الذي كان لطيفًا وهو يسألهم عن أسمائهم، سألهم عن أقرب قرية ليبحث عن عمل، وكانت السّماء قد بدأت تُمطر فدعاه «هُرهُور» لدار خالته أمّ «كُوكُون»، فسارا معًا نحو القرية، وقد بدأت السّعادة تدبّ في أوصال الغلام، أخيرًا هناك من يُشبهه، أحسنت العجوز استقبال «حمزة» وضيّفته، ونصحته أن ينتظر ابنها «كُوكُون» لعلّه يُفيده، غربت الشّمس، ودَحمَس[1] الليل، بينما كان «هُرهُور» يراقب النّجوم مع «حمزة» وهما يجلسان معًا أمام الدّار، ظلّ «حمزة» يُمازحه وهو يُناديه «هُرهُور»...يا «هُرهُور» حتى أحبّ الغلام اسمه هذا الذي كان قد بدأ يكرهه، لاحظ «حمزة» فزعته وانتفاضته عندما ناداه «كُوكُون» فور وصوله ليُطعم جواده، لم يفعل المسكين شيئًا يستحقّ الجلد بالسّوط، لكنّه بدأ يضربه، قام «حمزة» وأسرع تجاههما وحدث ما لم يكن في الحُسبان.

6
«الدّواس»

صاح «قلب العقرب» صيحة زلزلت الوادي، كان يجلس على عرشه ويزوم كالوحش الكاسر، ركع أمامه وزيره وقال:

–مولاي الملك، لماذا أنت غاضب، لقد سيطرنا على الكثيرين من شعب «أوركا» وغيره، وهانحن نزداد نفوذًا وقوّة يومًا بعد يوم، سنستعيد مجدنا وستكون أرض مملكة البلاغة كلّها لنا يومًا ما، وسنسحق «المجاهيم»، و«المغاتير»، وأعوانهم.

(١) دَحمَس أي أظلم.

قال «قلب العقرب» بصوت هادر:

-لم تنجح تلك الحمقاء «مِسكة» في اختطاف حفيد «أبادول»، كلّ المحاولات باءت بالفشل، عشرون عامًا مرّت ونحن ننتظر العون من حفنة من شرذمة مؤلفي تلك الكُتب التي لا قيمة لها.

ثُمّ صرخ بعنفوان:

-لماذا ينجح المحاربون في استرداد كُتبهم! لماذا!

ثُمّ أردف بحنق شديد:

-لا بدّ من القضاء على تلك الصقور، ولنحرق تلك الكتب، ونذبح حرّاس المكتبة العظمى، سننهي أسطورة المحاربين تلك، سنقضي على تلك الكُتب الحيّة، وسيسجد لنا البشر، وسنحرق كلّ شيء.

ثُم زفر بحنق وأضاف:

-لم ينجح في فتح ممر «أمانوس» إلا تلك المرأة، وها نحن ننتظر كاتبًا آخرًا من البشر، يفتّش في الكتب القديمة، وخاصّة كُتب السّحر، ثُمّ يعثر بالصدفة على الطلاسم ويُرددها، ثُمّ نتواصل معه...آه... كم من الوقت سننتظر لنحصل على ما نُريده، لماذا لم تتمكنوا من تسخير بشري آخر لتلك المهمة حتى الآن بدلًا من هذا السّخف!

أحنى الوزير رأسه وقال:

-تعلم يا سيّدي أنّنا تمكنّا من تسخيرها وخداعها فقط لأنّها كانت خائفة، دومًا خائفة، من الوحدة، ومن المجهول، ومن كل شيء، حتى الحشرات والقطط! وأنت تعلم أنّ نجاحنا يكمن في خوفهم.

-هناك ملايين من البشر، الكثير منهم ضعاف خائفون.

-لا تنس يا سيّدى أمر «الحورائيات»[1]، إنّهن يفضحن ما يحدث هنا.

شرد للحظات وقال بحنق:

-لم أنسهن، سنقتلهن أيضًا.

-ولا تنس أيضًا أننا لا نستطيع البقاء في عالم البشر لفترة طويلة، مجرّد دقائق معدودة نقضيها ونعود.

تنحنح أحد كبار الدّواسر وقاطعهما قائلًا:

-كانت «مسكة» تطلب العودة، تخلّصتْ من خوفها منّا بعد أن اعتادت على الحَديث معنا، ودِدْتُ لو تمكنتُ من خلع عينيها وأنا أقتلها.

رشقه «قلب العقرب» بنظرة ثاقبة وقال:

-أيها الأحمق...لم يكن من الصواب قتلها، سنضطر للانتظار حتى نتواصل مع كاتب آخر ليفتح ممر «أمانوس» مرّة أخرى، ويختطف أحد أحفاد «أبادول» ليكون لنا ومنّا، وحتى يحدث هذا، سنفتّش عن «الحورائيات» في كل شبر من أرض المملكة.

قال الوزير:

-سمعت أنّ الممرّ فُتح مرّة أخرى.

-ماذا! من أخبرك؟

-«ساجور».

-إن صدق فهناك زائر على أرض المملكة، ولا بدّ أنّه كاتب آخر فتح أحد الكُتب التي تحتوي على طلاسمنا الخاصّة، وردد الطلاسم ثلاثًا.

-بالتأكيد.

---

(١) الحورائيات طائفة من الفراشات، رتبة حرشفيّات الأجنحة، والاسم لجنس من الأجناس البشرية التي تسكن غابة من غابات مملكة البلاغة.

-فلنبحث عن هذا الزّائر في كلّ مكان، فنحن في حاجة إليه.

-أمرك يا مولاي.

انصرف الوزير الذي كان يسكن جسد شاب من شباب شعب «أوركا» ويتحدّث بلسانه، قرر أن يعود إلى القرية خُلسة للقاء حبيبته، لعلّه يعرف الأخبار منها.

7
«مُولي»

«حمزة»....

كنّا أمام الدار عندما وصل «كُوكُون» بوجهه العبوس، انقضّ على «هُرهور» وانهال على ظهره ضربًا بالسوط وبلا رحمة وبدون سبب يدفعه لذلك، آلمني جدًا ما رأيته من قسوته على الغلام، فأسرعتُ وقبضتُ على ذراعه وسحبت السوط منه وألقيته أرضًا، استشاط غضبًا وسدد إلى وجهي ضربة عنيفة بقبضة يده فأسقطتني أرضًا، كان يزوم كالوحش الكاسر وهو يقول:

-أيّها الحثالة...كيف تجرؤ؟

ثُمّ جذبني من ثيابي صارخًا:

-من أنت يا كالح البشرة؟

وبدأ يركلني بقدمه في صدري، كانت تلك المرّة الأولى التي أُواجه فيها خصمًا بتلك الصورة، دومًا كُنت أتهرّب من المواجهات، وكان هذا يُغضب أبي منّي، ولهذا انسحبت من التدريبات الرياضية التي سجلني فيها أنا وأخي «خالد»، كُنت دومًا أخاف المواجهة..أخشى الانهزام، والآن لا مجال للخوف فأنا وحدي هنا!

قمت لأواجهه واستحضرتُ كلّ ما تعلّمته من فنون القتال والدّفاع عن النّفس، أوسعته ضربًا كما لم أفعل مع أحدٍ من قبل، لأوّل مرة أضرب وأضرب ولا أتوقف!

كان شجاري مع «كُوكُون» عنيفًا للغاية، حتى أنني جرحته في وجهه وكذا فعل في يدي، أسقطّته أرضًا ووضعت ركبتي على صدره، اكفهرّ وجهه فدفعني بذراعيه بقوّة لأبتعد عنه، وثب في مكانه وأقبل تجاهي وكُنت متأهّبا للدفاع عن نفسي ولكنّ بعض أهل القرية حالوا بيننا، بدأوا يسحبونني من ذراعي ليبعدوني عنه، في تلك اللحظة أقبل شاب مديد القامة عليه مسحة هيبة رغم بساطة مظهره، خلع قميصه على عجل وألقاه على يدي حيث كانت دمائي تسيل منها ولفّه بعناية عليها وهو يتمعّن في ملامحي، من همسات الآخرين علمت أنّ اسمه «مُولي»[1]، تراجعت على مضض وصحت غاضبًا في وجه «كُوكُون»:

-أتضرب غلامًا لا حول له ولا قوّة!!

قال بصوته الأجشّ:

-هذا ملعون، خطيئة تمشي على الأرض، وهو لا يستحق إلّا الضرب بالسياط .

صاح «مُولي»:

-يا لك من ظالم جبار!

وهنا صرخ «هُرهُور» وهو يبكي:

-لست ملعونًا ولستُ خطيئة تمشي على الأرض.

صاحت امرأة كانت تخفي نصف وجهها بخمارها وتقف لتراقبنا من بعيد موجهة كلامها لـ«كُوكُون»:

---

(١) «مُولي» اسم نوبي بمعنى الجبل.

-تصف الغلام بالخطيئة وأنت بؤرة الخطايا ﻓ قريتنا أيها البرميل.

ضحك البعض..حتى «هُرهُور» الذي كان يبكي ضحك هو الآخر، بدا لي أنّهم يكرهون «كُوكُون» هذا، والذي استشاط غضبًا وأخذ يرغي ويزبد. ازداد الحشد حولنا، فبدأ يهدأ ويعدّل من ثيابه ﻓ اضطراب واضح.كانت الأمور تبدو مبهمة لي فمنذ لحظة لقائي الأولى بالغلام وبعد دخولنا القرية لاحظت اختلاف ملامحه ولون بشرته عنهم جميعًا، سألتهم وأنا أنقل نظراتي بين وجوههم:

-أين أهل هذا الغلام وعشيرته؟

قال «كُوكُون» بغضب شديد:

-ومالك أنت؟

-لا يشبهك ولا أظنّك أباه!

بصق على الأرض وقال بازدراء:

-قمامة وجدناها على قارعة الطريق وكادت الذئاب تأكله.

صاح الغلام:

-كاذب!

ثار «كُوكُون» وكاد يصفعه لولا ذراع «مُولي» التي حالت بينهما، أردف الغلام وهو يرتجف:

-لم يعثروا عليّ بالقمامة، لقد عثرت الخالة عليّ قُرب «ينابيع وَرَاشين» تحت أشجار العنب منذ سنوات.

سكن أهل القرية للحظات وكأنّ أحدًا ألقى رداء الصمت على رؤوسهم، لم ينبس «كُوكُون» ببنت شفة، فاجأه ما قاله الغلام عن يَنابيع «وَرَاشين»، كاد يحرق أمّه بنظراته.

مسح «مُولي» على رأس «هُرهُور» وقال موجهًا كلامه لـ«كُوكُون» وأمّه:

-لماذا أخفيتما أنّكما عثرتما على «هُرهُور» عند «ينابيع وَرَاشين» التي مررنا بها قبل أن نصل لقريتنا هنا؟

تلعثم «كُوكُون» وهو يتمتم قائلًا:

-لم تخبرني أمّي عن المكان الذي عثرت عليه فيه، ونحن مررنا بعدة قرى، والتقينا بالكثير.

اقتربت العجوز وقالت بخفوت:

-أشفقت عليه مما سيحدث له لو شاع في المدينة هناك أنّه...

رفع «مُولي» يده ليسكتها، ثُمّ هزّ رأسه وقال وقد لاحت على شفتيه ابتسامة يشوبها الحزن:

-لقد قُمت بخطف الغلام يا خالة! لا بدّ أن نُعيده لأهله وعشيرته.

تعالت همهمات الحضور، رشقوا الغلام بنظراتهم، وكأنّهم يرونه لأوّل مرّة، صاحت أم «كُوكُون»:

-ولكنني أُمّه، لقد ربيته! وهو أخ لولدي «كُوكُون».

زمجر «كُوكُون» قائلًا:

-لن يكون هذا المسخ أخًا لي أبدًا، إنّه لقيط! ألم أخبركم أنّه خطيئة تمشي على الأرض؟

غضب «مُولي» كما غضب الكثير ممن يقفون من أهل القرية وكرهوا ما وصفه به «كُوكُون»، كان أغلبهم يُشفق على الغلام ويعامله بلطف، وتلك كانت شيم أهل النوبة، إلّا حفنة ممن أعماهم الغضب والقسوة، هؤلاء الذين لا يرون بقلوبهم أبدًا، قلتُ مؤنبًا لـ«كُوكُون»:

-وما ذنب الغلام؟ وحتى إن أخطأ والداه، وهذا أمر تجهلونه بالمناسبة، فأنتم لا تقرأون الغيب! ثُمّ من منا يختار والديه؟ بل من هنا يختار ملامحه؟ أنت عزيز في نفسك طالما لم تذلها إلّا لخالقك، طاهر طالما لم تنجّسها بذنوبك!

ربّت «مُولي» على كتفي، بدا لي أنّه استحسن كلماتي، انحنى على الغلام الذّي كان منكمشًا وكأنّه ارتكب جرمًا ويخشى العقاب وقال وهو يرمقه بحنان:

-لماذا لم تخبرنا أنّ «كُوكُون» ما زال يضربك يا «هُرهُور»؟

نكّس الغلام رأسه، وسالت دموع أم «كُوكُون» وهي ترى انكساره، فرفع «مُولي» رأسه وقال بصوت جهوري ليُسمع الجميع:

-هذا الغلام عُثر عليه على أرض مدينة «وَرَاشين»، وأظنّه من أبناء شعب «أوركا»، وأنتم تعلمون ما حدث لهم في تلك المدينة، وسمعنا جميعًا عن حادثة الينابيع التي تصادف وقوعها وقت مرورنا من هناك.

كانت بعض الكلمات مُبهمة لي، فأنا لا أدري ما الحادثة، وما الينابيع، وما هي وَرَاشين، لكنني لن أتخلّى عن هذا الغلام، غرستُ عينيّ في عيني «كُوكُون» كما لم أفعل من قبل وقلت مهددًا:

-لن يُضرب «هُرهُور» بالسوط بعد اليوم.

-أتهددني؟ يا لجرأتك!

قالها «كُوكُون» بتنمّر محاولًا إثارة أهل القرية عليّ، لكنّهم لم يستجيبوا له رغم كوني غريبًا عنهم، وقف بيننا «مُولي» وقال:

-ما عاد لكم سلطان على الغلام، بقاؤه هنا ظلم له، سأعيده بنفسي لأهله وعشيرته، وسأتكفّل برعايته حتى أرده إلى شعب «أوركا».

صاح «كُوكُون»:

-لن تستطيع الخروج به من القرية، ستهاجمكما طيور «وَرَاشين» وستنقر رأسيكما.

قال «مُولي» بتصميم:

-لا بدّ أن أُحاول، لطالما حاولنا الخروج طلبًا للتجارة وغيرها، فلنحاول هذه المرّة أن نخرج لهدف نبيل ليس من ورائهمكسب مادي، لردّ الحقوق مثلًا، فللغلام حقّ في أهله، ولأهله حقٌّ فيه، وربّما لن تهاجمنا الطيور إن خَلُصَت نوايانا...فهل من صاحب يرافقنا في الطريق؟

تعالت الهمهمات، وانصرف القوم، ولم يُظهر أحد منهم نية لاصطحاب الغلام، صاحت العجوز وهي تبكي:

-خذه يا «مُولي»....خذه إلى هناك، ما عُدت أُطيق ضرب «كُوكُون» له، كبر الغلام وقلبي يتمزّق عليه، فليسامحني الله.

لم يجرؤ «كُوكُون» على معارضته، وخاصّة بعد كلمات أمّه الأخيرة.

أطبق الصّمت على الجميع، مدّ «مُولي» ذراعه واحتضن الغلام وأمره أن يحضر متاعه من داخل الدّار، تبعته العجوز وهي تكفكف دموعها، عانقها الغلام بحرارة ووعدها أن يزورها من آن لآخر، كان فرحًا لأنّه سيغادر الدار فبعد أن أدرك الحقيقة، قد يكون له أهل وأب وأم وأشقاء، ما عاد يرغب بالبقاء معهما، سبقنا مهرولًا على الطريق وكأنّه عصفور أطلق من قيده للتوّ، انطلقنا مع «مُولي» تجاه داره بعد أن دعاني بحضوره الآسر وبإصرار لزيارته، كان يمسك بذراعي وكأنّه يعرفني، راودتني الشكوك وقلت في نفسي ربّما «مُولي» هو أخي «خالد» وقد حلّ محلّ هذا الشّاب هنا بمملكة البلاغة تمامًا كما حدث لـ«مِسكة»، باغتني بقوله:

-مرحبًا بك أيّها المُحارب..

أصابني الذهول فسألته:

-وكيف عرفت؟

قال وهو يشير إلى يدي الملفوفة بقميصه:

-دماؤك لونها أحمر، وهكذا المحاربون.

شعرت أخيرًا بالرّاحة، هناك من يعرف على الأقل أنني محارب، سألته في الحال:

-وهل تعرف عن المحاربين؟

هزّ رأسه قائلًا:

-نعم أعرف عنهم وعن المكتبة العظمى، سمعت الكثير عما يحدث في مملكتنا العجيبة هنا، مملكة البلاغة تضج بالأسرار والغموض، كلّ بقعة هنا دارت عليها قصص وأساطير غريبة.

كُنت في حيرة أتساءل في نفسي، هل هو أخي «خالد» أم لا؟ ظللت أتلفّت وأحملق في وجهه وهو يسير بجانبي لعلّه يلمح لي بأيّ علامة فأعرف أنّه أخي «خالد» وسألته:

-هل تودّ إخباري بشيء؟

عقد حاجبيه وقال متعجبًا:

-مثل ماذا؟

-أيّ شيء..

ابتسم فكشف اللثام عن أسنانه اللؤلؤية البيضاء وقال:

-مرحبا بك بيننا.

قُلت ممتنًا له:

-مرحبًا بك يا أخي.

انفرجت أساريره عندما ناديته بـ«أخي»، وكلّما كررتها كان يبتسم، قُلت ممتنًا له:

-بالمناسبة شكرًا على القميص، الآن فهمت لم ألقيته على يدي، أردتَ إخفاء لون دمائي، أليس كذلك؟

-بلى.

ثُمّ رفع حاجبيه قائلًا:

-لو علم أهل القرية أنّك مُحارب سيطردونك في الحال.

-لماذا؟

-لأننا ومنذ وصولنا إلى هنا نعيش في مجتمع مغلق، ولأنّك مختلف! سينبذونك.

ثُمّ زفر بحنق وأضاف:

-تمامًا كما يفعل بعضهم مع «هُرهُور»، يصبّون غضبهم على الصغير لأنّ لون بشرته مختلف، فهذا يزعجهم للغاية.

قلتُ متعجبًا:

-غريب أن...

قاطعني «مُولي» قائلًا:

-أن يعاملوه بنفس المنطق القميء الذي يعاملنا به الآخرون لأن لون بشرتنا السمراء مختلف..أليس كذلك؟

-بلى، ولأنّه غلام مسكين!

-نعم، ولهذا أُشفق عليه، ولكن هناك شيئًا لا بدّ أن تعرفه، ، وهذا ليس عذرًا وإنمّا فقط أُخبرك لكي تعرف السّبب، فوجهه وملامحه تذكرهم بمن طردونا من ديارنا، ما زالت مرارة الظلم الشديد الذي وقع علينا تظلل على الجميع، لقد طردنا الغزاة من ديارنا في وادي «الفراديس» بجوار جبل «أمانوس».

تسارعت دقّات قلبي عندما سمعت كلمة «أمانوس» تخرج من بين شفتيه، قاطعته بفضول:

-وأين جبل «أمانوس»؟

-إن أحببت الذّهاب رافقني غدًا في رحلتي لمدينة «وَرَاشين»، سأعيد «هُرهُور» إلى هناك لأبحث عن أهله، قبل أن يعود «كُوكُون» لاسترداده مني.

-وهل سيفعلها؟

-نعم، أنت لا تعرفه، يتلذذ بقهر الغلام وتعذيبه، حاولت كثيرًا أن أضمّه وأرعاه لكن الغلام كان يرفض لأنّه يحبّ الخالة أم «كُوكُون».

-لكن...يبدو أنّ «كُوكُون» يهابك، فهو لم يرد لك كلمة!

-ربّما لأنني عطّار القرية الذي يصنع لهم الأدوية والعلاج من الأعشاب، وأعرف الكثير عن أسراره، وعن مرضه الجلدي الذي أصابه بسبب إهماله لنظافته، وما كُنت لأفضحه! لكنه دوما يخشى هذا الأمر!

-أنت تعمل كمعالج أو..طبيب إذًا..

-ليس تمامًا لأنني لم أتمكن من الخروج من القرية للدراسة، ولكن تستطيع أن تقول هذا يا...ما اسمك؟

-«حمزة».

سألته محاولًا فهم ما وراء قصّة «هُرهُور» قائلًا:

-ما قصّة شعب «أُوركا» ومدينة «وَرَاشين»؟ ولماذا لم تسكنوا هناك معهم بالقرب من الينابيع التي تحدّثتم عنها؟

أطلق تنهيدة وقال:

-سأخبرك بكلّ شيء...هل سمعت عن حيتان الأُوركا من قبل؟

وانطلق يروي لي قصّة شعب أُوركا، وسمعت ما أدهشني!

وصلنا أخيرًا لبيت «مُولي»، كان بيته بسيطًا، بابه ذو لون باهت، تعلو سقفه علامات البلى بفعل المطر! حتى طلاء جدرانه من الدّاخل بدأ يتلاشى، وبقيت مسحة من لون أزرق شاحب حول مقابض ومسامير النوافذ الصدئة، وقف أمامنا وأحنى رأسه بأدب ومدّ ذراعه وانحنى بشكل مسرحيّ وقال وعلى وجهه ابتسامة:

-مرحبا بكما في داري.

كدت أجنّ، لقد أحنى رأسه كما يفعل أخي! ولكن...هل هو أخي «خالد» أم لا؟ أو...ربما كان «كُوكُون» هو أخي!!

يا إلهي..أيُعقل أنني أوسعت شقيقي ضربًا منذ قليل!

كيف سأعرف من منهما أخي؟

جلست بجوار «هُرهُور» الذي كان ممددًا على فراش بسيط وهو يئن ويتألّم من جراح السوط على ظهره، بينما «مُولي» يعالجها بدهان ملطف ومسكن للألم صنعه بنفسه، كنت متعبًا للغاية، فاستسلمت للنوم سريعًا، لكنني وبعد ساعات قليلة وجدتّه يوقظني أنا و«هُرهُور» ويهمس إلينا لنتبعه، قال قبل أن يفتح الباب ببطء شديد:

-لا بدّ أن نخرج الآن، لقد بَهَر القمر النّجوم، وانتصف الليل منذ ساعة.

سألته وأنا أفرك عينيّ متعجبًا:

-لماذا الآن؟ فلننتظر حتى تشرق الشّمس.

قال بقلق:

-كانت الخالة أمّ «كُوكُون» هنا منذ قليل، وحذّرتني من «كُوكُون»، تقول إنّه يجمع عصابته ليداهمنا، فهو غاضب منك يا «حمزة»، ويريد استرداد «هُرهُور».

قال «هُرهُور» بصوت يشوبه القلق:

–طيور وَرَاشين ستهاجمنا.

قال «مُولي»:

–سنحاول، ولو ظهرت الطيور وهاجمتنا سنعود، وعندها سأتعامل مع «كُوكُون» بطريقتي الخاصّة، ولن أسمح له بأذيتك بعد اليوم.

ثُمّ أردف وهو يطالع «هُرهُور» بنظرات تشي بالغموض:

–أعطتني الخالة قلادة تخصّك، كانت حول رقبتك عندما عثرت عليك، ربّما سنستدلّ بها على أهلك، وقالت..

سألته:

–ماذا قالت؟

–ضع القلادة حول عنق الغلام وأخبره أن يظهرها عندما يدخل مدينة «وَرَاشين»، فهناك من يحمل نصفها الآخر وسيتعرّف عليه لو رآها.

بدا وكأنّ «مُولي» يخفي جزءًا من حواره مع أم «كُوكُون»، ابتسم الغلام وتناول القلادة ووضعها حول عنقه وتشبث بثيابه، كان يشعر بالبرد، انطلقنا في طريقنا وكانت الرّياح شديدة البرودة، اقشعر بدني من هذا البرد القارس، واستحال جلدي جلد إوزة، رفعت رأسي للسماء وبدأت أحدّق في النجوم، برق نجم وضوى وكأنّه يراقبني، قلت متعجبًا من بريقه الظاهر:

–ما هذا؟

قال «مُولي» بعد أن رفع رأسه هو الآخر ورآه:

–هذا نجم يسمى «قلب العقرب».

ثُمّ التفت نحوي وقال وقد بدا عليه التأثّر:

–عدني بشيء يا «حمزة».

-تقصدين أنّها ملبوسة بكيانٍ آخر؟

-بل ملبوسة بكيانين! ساحرتين من ساحرات ماذريون يسكنان تلك المرأة، ستهتمّان بمولود «مَيلاء» فلا تقلقي يا مولاتي..

قالت القابلة بهدوء للأميرة «مَيلاء» وهي تزمّ شفتيها:

-كلّ المطلوب منك هو التنفّس بانتظام، شهيق عميق وزفير أطول في كلّ مرّة يداهمك فيها الألم يا مولاتي.

شهقت «ميلاء» بعصبية وصرخت قائلة:

-أشعر أنّ أضلاعي تُطحن طحنًا مع النفس الخارج منّي، هذا ألم لا يُحتمل، اسقيني شيئًا يبطله.

قالت وصيفتها وهي تمسح على رأسها:

-بعد قليل ستنجبين الذكر الذي سيتوّج أباه ملكا لـ«وَرَاشين»، تحمّلي يا مولاتي.

قالت «مَيلاء» بمرارة:

-وماذا سأفعل لو كانت أنثى! وقد تُنجب «سُندس» الذّكر لزوجها «فِراس» ويفوز بولاية العهد قبل «خلدون».

همست وصيفتها في أُذنها قائلة:

-وقتها...سنمحوه من الوجود!

تعالى صراخ «مَيلاء»، ومضت ساعة عسيرة عليها، وأخيرًا انطلق بكاء طفلها ليرتجّ القصر كلّه، رُزق «خلدون» بالذّكر، ولدت زوجته «مَيلاء» الذّكر قبل أن تلد «سُندس»، وكانت الأخيرة تقف وقد تجهّم وجهها

واختلجت شفتاها في غيظ، امتلأ صدرها بفيض من الكراهية المتّقدة تجاه «مَيلاء»، كانت تختلج وتكاد تثب في مكانها وهي تشعر بخيبة أمل فظيعة، ظنّت أن السّاحرة ستقتل «مَيلاء» وولدها وهي تلده، أو ستقتل الصبي على الأقلّ! لكنّها لم تفعل! لا بدّ أن تتحرّك قبل مراسم التتويج.

كانت الغرفة تسبح في ضوء أزرق شاحب، ابتسامات الصغير كانت تضيء وجهه الملائكي وهو نائم بينما تحتفل أمّه مع زوجها في جناح الملك «عدنان»، خلت الغرفة من الوصيفات فجأة فبقي وحيدًا ونسمات الهواء الرقيقة تُداعب النوافذ، فقد أمرت الأميرة «مَيلاء» بتوزيع الهدايا على الوصيفات فهرولن لتنال كلّ واحدة منهنّ نصيبها وتَركنَ الصغير وحده، تسلل خيط رفيع من الدخّان من تحت زجاج النّافذة غير محكمة الإغلاق، تكوّر الخيط في الهواء وبدت عجوز مهيبة لها عينان تبدوان كبئرين عميقين أسودين، وصعدت فوق صدر الصغير كالذّئبة تجثم على صدر فريستها، ازرقّ وجهه وبدأ يسعل، خرج من فمه الكثير من اللعاب، وتشنّجت أطرافه، لم يتمكّن المسكين من الصراخ، كادت تقتله، انفتح باب الغرفة وانصفق بعنف، دخلت الأميرة «مَثابة» للغرفة فجأة وراعها انصفاق الباب! أرادت أن تُبارك لـ«مَيلاء» على ولادتها وتُشاركها فرحتها، صرخت في فزع عندما رأت الصغير ينازع وحملته بين يديها وهي تبسمل وتحوقل، رأت الطيف المخيف وهو يتسرّب ويبتعد، في تلك اللحظة دلفت الوصيفات مرّة أخرى، صرخن في وجهها لكنّها ظلّت تربّت على ظهر الصغير ونفخت في فمه الصغير فشهق وانطلق يصرخ ويبكي، دمعت عيناها عندما رأته يتنفّس، لم تسلم المسكينة من سوء الظنّ الذي وقع بها، وقد كانت زوجات الأمراء الثلاثة يتربصن ببعضهن البعض منذ

شهور، فشاع في القصر أنّ الأميرة «مَثابة» حاولت قتل المولود الجديد، صفعتها «مَيلاء» بقوّة على وجهها وقالت لها أمام الجميع:

-لقد أقدمتِ على فعل جريمة حقيرة! وستُعاقبين!

كرر «فِراس» سؤاله لـ«مَثابة» للمرّة الخامسة، وكانت تُكرر نفس الإجابة:

-أخبرتكم أنني رأيت طيفًا لعفريتة من الجنّ تجثم على صدر الصغير، كان مزرقًا واللعاب يخرج من فمه، لولا البسملة والحوقلة لمات، لا ريب أنّها من ساحرات «ماذريون» اللاتي يقتلن الصغار.

زفر «فِراس» بحنق، كانت عيناه تطالعها بنظرات تتسم بالخطورة وهو يقول لها:

-قولي الحقيقة لعلّ اعترافك يشفع لك عند جلالة الملك «عدنان» يا «مَثابة».

أمسكت «مَثابة» برأسها بين يديها وقالت:

-لم أفعلها...صدّقوني!

هزّت «سُندس» كتفيها قائلة:

-لا وجود لساحرات «ماذريون»! كيف تجرؤين!

هرولت «مَثابة» نحو زوجها وقالت له برجاء:

-»أشهم» أنت تُصدّقني..أليس كذلك؟

التمعت عيناه ببريق بارد، كان كئيبًا في صمته، همهم أخيرًا بصوت واهن قائلًا:

-نعم أصدقك.

اندفع «فِراس» نحوها وأبعدها عنه وقال بعصبية شديدة:

-قولي الحقيقة يا «مَثابة»، امنحيني شيئًا أشفع لك به عند أبي، هل أصابتك الغيرة من «مَيلاء» و«سُندس».

التفتت نحو زوجها «اَشهم» وطالعته بنظرة توسّل ورجاء، أرادت منه أن يُدافع عنها أو يقول شيئًا لكنّه عاد لصمته، تراجعت خطوة للخلف وماتت عيناها، ما عاد لنظراتها روح ترى بها من حولها، لقد طعنها حبيبها بسكوته الخنيق، وهو يعلم أنّها لم تُنجب لأنّه لم يلمسها وليس لسوء بها، أدركت الآن أنّ زهده فيها لأنّه لا يملك في فؤادِه ذرّة حبٍ لها، سالت الدموع من عينيها وجلست في سكون، انصرف «أَشهم» مكروبًا، الآن يريد أن يكون وحيدًا أكثر من ذي قبل، انطلق «فِراس» نحو ديوان الملك «عدنان» ليُلح على أبيه ليأمر حرّاسه بإلقاء القبض عليها، لكنّ الملك «عدنان» كان يشعر أنّ هناك خطبًا ما! وخاصّة أنّه يعرف «مَثابة» وقد اختارها كزوجة لولده بنفسه، فأمر بحبسها في غُرفتها حتى ينظر في أمرها، مما أثار غضب «سُندس»، و«مَيلاء».

كان الملك «عدنان» في أبهى زينته، أُعدّت الولائم احتفالًا بحفيده الذي أطلق «خلدون» عليه اسم جدّه «عدنان» تبرّكًا به، وكانت «مَيلاء» حاذقة عندما أشارت عليه بهذا، فقد كان هذا سببًا في سعادة الملك، تناول الملك الطعام بشراهة كعادته، أمضى وقتًا لطيفًا قبل أن يشعر بكسلٍ شديد وصداع يحرق رأسه فتوجه نحو جناحه للنوم، في تلك اللحظةً كانت «سُندس» في غرفتها مع زوجها «فِراس» تداعب خصلات شعرها بعصبية وهي تقول له:

-يجب أن تقتل أخاك «خلدون».

رفع «فِراس» بصره إليها وزجرها قائلًا:

-ماذا دهاكِ يا امرأة؟ ما هذه الدعابة السخيفة!

هزّت «سُندس» كتفيها باستهزاء وقالت:

-ليست دُعابة، أنا أعني ما أقوله، سألد ذكرًا، ولكي تكون أنت وليًا للعهد لا بدّ أن يموت «خلدون»، فهو الآن المرشح الأوّل لولاية العهد حسب أحكام والدك التي وضعها بنفسه!!

اقترب «فِراس» حثيثًا منها وقال:

-فليكُن هو الملك طالما تلك هي القوانين التي شرعها أبي.

صرخت بحنق شديد:

-هُراء من تأليف بطانة أبيك البلهاء، لا بدّ أن يتغيّر كلّ هذا.

تململ في عصبية وقال:

-تعلِمين أنّ تلك القوانين شُرعت بأمر من أبي عندما علم بزواج «أَشهم» من مسخ من مسوخ «أوركا»، وتنصّ على أن تكون الزوجة من شعب مَدينة «وَرَاشين»، و...

قاطعته بحدّة قائلة:

-دعك من هذا الهُراء وأجبني...أنت! هل سترضى بالفُتات؟ وأن تكون في الظل؟ وأن تكون كلمة أخيك «خلدون» على رقبتك!

-لن يجرؤ! ولن يقوم بخيانتي أبدًا.

ضحكت «سُندس» وتمددت على أريكتها وقالت بصوت تشوبه رنّه استهزاء:

-الخيانة في دمكم ورثتموها من أبيكم!

تلوّن وجه «فِراس» وأقبل على «سُندس» غاضبًا فرشقته بنظرة متوّعدة وقالت بصوت غليظ:

-فعلها أبوك من قبل وقتل أخاه «رَجْوان»...أنسيت؟

تخشّبت ساقا «فِراس» وقال حانقًا:

-لن أقتل أخي بيدي، ولن يفعل هو أبدًا!

اقتربت منه بعينيها نصف المغمضتين وضحكاتها النّاعمة وتعلّقت بعنقه في دلال وقالت:

-لن تعي ما أقوله إلّا عندما تستعيد رباطة جأشك، اهدأ وفكّر جيدًا يا حبيبي لم يتمكّن جمالها من تشتيت ذهنه من حالة الاستغراق التي كان فيها، كانت تلك أسخف دعابة سمعها في حياته، أن يقتل أخاه من أجل التاج! هل حقًا هي تعنيها؟

انصرف وحدقتا عينيه مفتوحتان على وسعهما، أراد أن يبتعد عنها الآن...وبسرعة.

أمضى «فِراس» ليلته في غرفة أخرى، انضم إليه «أشهم» وباتا ليلتهما وكلّ منهما عَالق في فقاعة وحده، كان «أَشهم» حزينًا لما ألمّ بزوجته، قد يكون قد زهد فيها بعد زواجهما لكنّه يُحبّها بطريقة ما! هناك حاجز بينهما يصعب عليه وصفه، شيء ما يمنعه عنها، وربّما هذا الحاجز بينه وبين قلبه هو في تلك المساحات اللامرئية بين الضلوع...هو لا يدري...

في نفس الغرفة كان «فِراس» غاضبًا، فقد كانت كلمات زوجته التي يعشقها شديدة الجرأة حتى أنّها كشفت تلك الزوايا المظلمة من نفسه، والتي لا يستطيع دخولها إلّا بمساعدة أحدهم، وخاصّة لو كان بعقلية «سُندس» الشيطانية، نام بصعوبة ليستيقظ في الصباح على صراخ وعويل، مات!! مات!!

نساء القصر ينتحبون، لقد مات! ازدحمت غرفة الملك «عدنان» بالحرّاس والأطباء، فحصوه مرارًا واجتمعوا على رأي واحد، لقد تم تسميمه! تم إلقاء القبض على العديد من الجواري والخدم المقرّبين من

الملك، كانوا جميعًا يتخبّطون في حيرة، ستمر لحظات عصيبة على مدينة «وَرَاشين»، اقتربت «سُندس» من «مَيلاء وهمست بصوت خفيض وهي تضغط على كتفها:

-ألهذه الدّرجة تتعجلين ارتداء التّاج!

اضطربت «مَيلاء» ودفعت يدها بعنف وانخرطت في بكاء هستيري، قامت تهرول نحو جناحها وهي ترتجف، بينما وقفت «سُندس» وهي تضع يدها على بطنها المتكوّر أمامها، كانت كالقدر يغلي بما فيه، وكان زوجها «فِراس» يقف مكروبًا وقد تدلّى فكّه إلى أسفل في اكتئاب شديد، مرّت السّاعات تجرّ بعضها، وبدأ كبار القوم يلتفّون حول ملكهم الجديد «خلدون»، تلك هي الدنيا، اليوم سيُدفن ملك، وسيتوّج آخر، وسيبدأ عهد جديد.

-أرأيت كيف قتل أخوك «خلدون» الغبي والدك؟

صاح «فِراس» غاضبًا:

-كفّي عن هذا يا «سُندس»...توقفي!

رفعت «سُندس» حاجبيها وقالت بازدراء:

-هل أنت غبيٍ؟ لقد وضعت له «ميلاء» السمّ في الماء، كانت تعلم أنّه يستيقظ ليلا ليشرب الماء عدّة مرّات كعادته، أنسيت أن وصيفتها المقرّبة تكون شقيقة الجارية المحببة لأبيك؟

قال «فِراس» وهو ينفض الفكرة عن رأسه:

-هذا لا يعني أنّ أخي «خلدون» هو من فعلها، وربّما شخصٌ آخر..ليس لديكِ الدليل، تلك مجرّد شكوك.

هزّت كتفيها قائلة:

-ولم لا يفعلها، كان أبوك هو العقبة الوحيدة بينه وبين التاج، موت الملك «عدنان» يعني تنصيب «خلدون» ملكًا بدلًا منه في الحال، وهاهو يقتله يوم احتفاله بحفيده، أحمق وسيظل أحمق للأبد، وقد...يقتلك أنت أيضًا!

-لا...لا..توقفي عن هذا..اسكتي!

قالها «فِراس» وهو يقبض على فمها بقوّة، تركت أصابعه علامات حمراء على وجنتيها، أغضبها هذا وكانت تتأجج غيظًا، تركها وانصرف وهو يطرق الأرض بخطوات جندي محارب، كان وقع صوت خطواته وهو يبتعد يدقّ على قلبها دقًا وكأنه يطحنه..

في تلك اللحظة كان «الدّيسق» يُحلّق فوق مدينة «وَرَاشين» وينقل لـ«حمزة» مراسم تتويج «خلدون» ملكًا على مدينة «وَرَاشين»، ما زالت طيور الوَرَاشين على أسقف البُيوت، والأشجار، والنّخيل، وفي الطرقات، رأى «حمزة» التاج، ورأى وجه «خلدون»، وزوجته وهي تقف بخيلاء وهي تحمل ابنها وقد أطلّ الفخر من عينيها، ورأى الشعب وهو يلتفّ حوله ويردد اسمه، لم يظهر «فِراس»، ولا «أَشهم»، فقد أمر الملك «خلدون» بحبس أخويه في غرفتيهما، وكان هذا أوّل قرار له، أمّا الثاني فكان إلقاء «مَثابة» زوجة أخيه في بئر «دِرواس» عقابًا لها على محاولة قتلها لولده، كان التاج بين يديّ كبير مستشاري الملك «عدنان»، أوشك أن يضعه على رأس «خلدون»، وفجأة! انقضّت طيور الوراشين عليهم وصارت تخشخش وتقلقل وتزوم وتقرقع، وتنقر رؤوسهم وأياديهم، فرّوا جميعًا إلى داخل القصر، وهربت «مَيلاء» بولدها إلى غرفتها، وركض «خلدون» في هلع، رفضت طيور الوَرَاشين أن يُنصّب «خلدون» ملكًا عليها، خلت الطرقات من النّاس، وغُلّقت الأبواب، وسكنت المدينة.

انتهى «الدّيسق» من نقل المشهد لـ«حمزة»، فهمس بصوت واثق وهو يمسح وجهه:

-لا بدّ أن نذهب إلى «وَرَاشين» الآن، لا بدّ من ردّ «هُرهُور» لأبيه.

«لا بدّ من دخول المدينة بطريقة لافتة للنظر، لكي يتجمّع أهل «وَرَاشين» ويستمعون لما سيُقال، وحتى يحميكم حضورهم من طُغيان الحرّاس»

كانت هذه كلمات «حمزة»، وقد وافقه الجميع في الرّأي، حمل شباب «أُوركا» النواقيس وساروا في صفوف ودلفوا المدينة وهم يدقّونها، أطلقوا صيحات «أُوركا» بلغتهم الخاصّة، وكانت لغتهم غير مفهومة للكثيرين من أهل مدينة «وَرَاشين» لكنّها أصدرت ضجّة كافية، كان «سَاهور» يرتدي القلادة ويظهرها على صدره، تجمّع النّاس خلفهم وهم يتساءلون عمّا حدث، وصلوا بعد أن أحدثوا جلبة كافية وتجمهر أهل المدينة حولهم، وكانت طيور الوراشين تُحلّق في السماء فوقهم في جماعات، وتتنقّل من غصن لآخر، ومن سقف بيت لآخر في حركة منتظمة ولافتة للنظر، وقف «سَاهور» وسط الميدان المقابل لقصر عمّه، وورفع يده فسكن النّاس، وكان مشهده وهو يرتقي في الهواء لا يزال يهدهد عقولهم، تذكّروا أباه الشيخ «رَجْوان»، فوقفوا في سكون لينصتوا إليه كما كانوا ينصتون لأبيه، نادى «سَاهور» على أبناء عمّه الثلاثة، لم يستجب «خلدون»، كان مُرتابًا كعادته، لكنّه أجبر «فراس» و«أَشهم» على الخروج وسط فيلق من الحرّاس ليسمعا منه، بدأَ «سَاهور» يروي قصّة «هُرهُور» وهو يستند على عصاه بيديه، وكان جسد «أَشْهَم» يختلج وعيناه تذرفان الدّموع، وكانت العجوز التي شهدت ما حدث من نافذة بيتها تقف بجواره، انضمّت إليه لتُثبت شهادتها أمام أهل المدينة، ما عادت تخاف طيور الوراشين، وكانت بنات الحداد على مقربة منها..

خلع «سَاهور» القلادة ورفعها بيده اليُمنى، شقّ الأمير «أَشهم» صفوف الحرّاس وجذبها من يده وتفحّصها وهمس وقد دمعت عيناه:

-هذا نصف قلادة أُمّي كانت قد أهدتها لـ«رَسيل»، عندما رأيتك ترتديها وأنت تقف أمام أبي بالقصر وقع شيء في نفسي، لكنني لم أكن على يقين أنّها هي نفس القلادة، أين نصفها الآخر، وأين ولدي...أين؟..أين؟

قال «سَاهور» بأناة واهتمام وهو يهزّ رأسه:

-«هُرهُور» في قرية «اُوركا» مع «حمزة».

حدّجه «فِراس» بنظرة حديدية باردة وقال:

- كذب وهراء واحتيال! لماذا لم يظهر هذا المسخ الهُرهُور إلّا الآن، تُريدون أن يتولّى «أَشهم» الحكم لأنّه الأقرب لقلوبكم!

حدّق «أَشهم» في وجه «فِراس» بضجر وقال:

-لا أُريد الملك ولا أطمح للتاج! أُريد استرداد ابني فقط! ولتذهب القوانين للجحيم.

قال «فِراس» بحنق شديد:

-لن نسمح بدخول المسوخ إلى قصر أبي!

-سأستردّ ولدي «هُرهُور» وأرحل معه ومع «مَثابة» من مدينة «وَرَاشين» كلّها إن أحببتما أنت و«خلدون».

ابتسم «سَاهور» ورفع صوته قائلًا:

-لن تسمح لك طيور الوَرَاشين بمغادرة المدينة يا «أَشهَم»!

نظر إليه «فِراس» نظرة نصف هالعة وقال:

-أيّ هراء تتحدّث عنه!

قال «سَاهور» بصوت واثق:

-لاحقت تلك الطيور أبي عندما كنّا هنا في زيارة عمّي «عَدنان»، وكدنا نغادر المدينة ونتخطى حدودها عندما حطّت على رأسه وكتفيه وتجمّعت حوله، بدأوا يصدرون هدهدات غريبة، وكأنّهم يتوسلّون إليه حتى لا يُغادر المدينة، كانت الطيور تنوح كلّما تقدّمنا خطوة للأمام، وقف أبي للحظات وأغمض عينيه، وعندما فتحهما كانتا هادئتين كما لم أرهما من قبل، تنهّد وقال بصوت خفيض وكان يحدّث تلك الطيور:

«لا أُريد المُلك...لا أُريده!»

رفض لكي لا يخسر أخاه، ورحل باختياره، وكان على خطأ، وما كان يظنّ أنَّ أخاه سيأمر بقتله! ولو أنّه بقي هنا ولم يخرج واستجاب لمطلب شعب «وَرَاشين» لأعانه الله، ولرأينا خيرًا، ولرُدم بئِر «درواس»، ولقتل الوحش، ولعمّ الخير على الجميع، الرّجال والنّاس، ولكان لـ«وَرَاشين» شأن أعظم، ولكان لشعب «أوركا» وشعب «وَرَاشين» خير وفير، فلا تفعل كما فعل أبي، فقد رعت الطيور ولدك في قرية «كُروسكُو» ومنعت خروجه منها إلّا مع مُحارب، فتولَّ أمر تلك المدينة وأعد لها أمجادها القديمة، ولتُغيّر تلك القوانين..

لا بد أن ينال الجميع نفس الحقوق، ونفس الفرص، ونفس الالتزامات، يجب أن يُولّى الأصلح، ويوسّد الأمر لأهله، هناك قواعد غير مرئية تسري بيننا، يجب معاملة النّاس بشكل متساوٍ، وعدم الانحياز لفئة معينة، أو تعريضهم للظلم والعنصرية لأنّهم مختلفون، فكلنا سواسية، لا يُرفع أحد لأنّه أجمل، أو لأنّه أقوى، أو لأنّه أغنى، بل لأنّه الأفضل بما لديه من ميزات، فهذا هو العدل.

كان «خلدون» يُنصت إلى حوارهم وهو يحتمي بحرسه، استشاط غضبًا عندما سمع كلمات «سَاهور» فصاح صيحة مجلجلة وأمر جنوده قائلًا:

-اقبضوا عليه.

اندفع الحرّاس نحو «سَاهور»، فقفز أخوه «سنمّار» أمامه واستلّ سيفه، وانطلق يجندل بسيفه يمينًا ويسارًا وعاونه شباب «أُوركا» والتفّ الحشد من شعب «وَرَاشين» حول «سَاهور» ليحموه من حرّاس «خلدون»، تراجع فيلق الحرّاس الذي كان يحمي «فراس» و«أَشْهَم»، وكان الأخير يقاومهم، يُريد المضي مع أبناء عمّه بحثًا عن ابنه، لكنّه لم يتمكّن، اشتدّت الرّياح فجأة، وأحسّ الجميع بلسعات الرّمال الصغيرة كالإبر على وجوههم، وأظلمت السّماء فجأة، ودوّى صوت الرّعد تنخلع له القلوب فارتجّت الأجواء، وكأنّه ينذرهم بقرب هبوب عاصفة شديدة، فتشتت الجمع، وهرولوا في كلّ اتجاه مسرعين إلى ديارهم، وعاد «سَاهور» مع أهل أوركا لقريتهم ورأسه يضجّ بالأفكار، وترك خلفه الأمراء الثلاثة في حالة تخبّط شديد.

كانت «مَيلاء» مُضجرة بشكل غير عادي، لم تنجح مراسم تتويج زوجها، وهاهو «سَاهور» يطلّ فجأة بخبر يهزّ أركان القصر، قالت لزوجها وهي تُحدّق في وجهه باكتئاب:

-ماذا لو كان كلام «سَاهور» حقيقة؟

-لن أسمح بدخول ابنه المسخ إلى القصر.

-كون أمّه من شعب «أُوركا» لا يمنع أنّ أباه منّا، وبهذا سيكون «أَشهم» أولى بحكم «وَرَاشين» منك.

-قال «أَشهَم» أنّه زاهد في الملك، ويريد الرّحيل من هنا مع ابنه ومع «مَثابة».

التفتت تجاهه بعصبية وقالت:

-تلك البائسة لن تخرج من المدينة، ستُلقى غدًا في بئر «دِرّواس»، لقد حاولت قتل ولدي المسكين، كادت تخنقه!

-لا أُريد استفزاز «أَشّهَم» بإلقائها في البئر، فلنساومه على روحها، وليكن له ما يُريده، فليخرج بها من المدينة، ويترك الحكم لي، وليرحل من هنا.

-قال «سَاهور» إنّ طيور الوراشين ستمنعه من الخروج!

نظر كلاهما إلى طيور الوراشين التي كانت تزدحم على النافذة، أصابهما الروع من صوت نقرها على النوافذ، كانت «مَيلاء» تشعر باليأس، وكان «خلدون» يتميّز غيظًا، جلسا بجوار بعضهما كتمثالين قديمين بائسين فقدا بريقهما، بكي الصغير فلم تقم إليه أُمّه، تركته يصرخ حتى احمر وجهه، طرقت جارية من جواريها الباب وهرولت وحملته وخرجت به، كانت «مَيلاء» في حالة من الضجر جعلتها صمّاء، قالت لزوجها بصوت مكتوم:

-ماذا سنفعل لو فعلت تلك الطيور فعلتها أمام النّاس؟ سيلتفّون حوله كما التفوا حول عمّك، أنسيت ما حدث لعقولهم بعد أن رأوا «سَاهور» وهو يسحب هذا المحارب من بئر «دِرّواس»؟

-سُحقًا لتلك الطيور، سأقتلها جميعًا...بل سأقتل «أَشّهَم».

التفتت نحوه وحدّقت في وجهه فزعًا مما سمعته، فكررها وهو يثقب عينيها بعينيه:

-سأقتله من أجل «وَرَاشين»، ومن أجلك، ومن أجل ابننا!

بدأ يصرّ على أسنانه، فقد بات تحت وطأة ضغوط كثيرة، ظلّت كلماته معلّقة في الهواء، أضاف وهو يعصر كفيه:

-سأصدر الأمرِ لمن أثق بهم من حرّاسي المقرّبين، وليفعلوها خلسة قبل أن يرى «أشْهَم» ابنه.

قالت «مَيلاء»» بصوت مُرتعش:

-ولكن هذا أخوك!

أسرع قائلًا:

-قتل أبي أخاه من أجل «وَرَاشين»، مصلحة الجميع قبل مصلحتنا الشخصية، سأقتل واحدًا من أجل آلاف، فهو لا يصلح للحكم، وسيُدخل بحماقته عِرقا غريبًا للحكم، أنسيتِ أنّ ابنه هجين؟ أنا أكثر كفاءة منه، فهو ضعيف الشخصية...أنا أكثر أشقائي دهاء وخبرة وقوّة وبأسًا والجميع يثق بي.

-وماذا ستقول للناس؟

-لن يكون هذا بيدي...

شعر «خلدون» باختناق فاقترب من النّافذة فرأي طيور الوراشين تقف بالخارج فضرب على النافذة بعصبية شديدة وصرخ بحنق ليخيفها، ثُمّ خرج وهو يطرق الأرض بعصبية كالمجنون.

أطلقت «سُندس» ضحكة ممزّقة وقالت باستهزاء:

-«أَشْهَم»! أيكون هو الملك..وأنت لا يا «فِراس»!

رأى «فِراس» أنّ زوجته على وشك أن تجأر بكلام جارح فأسرع يقول:

-لن يكون ملكًا، هو لا يصلح لهذا ولا يُريده، سأساعده ليرحل من هنا مع «مَثابة» مقابل أن يتنازل عن الحُكم، وليعش في سلام مع ابنه ومعها في مكان بعيد..بعيد جدًا.

قامت «سُندس» في نشاط واقتربت منه ورددت وهي تزمّ شفتيها:

-قد تكون حياتهما ثمنًا لمستقبل أبنائك

-من هما؟

-«أَشهم» و«خلدون».

لم يُجبها «فِراس»، وخرج من الغرفة والموت يقبع بين عينيه، جلست تمشّط شعرها وتتحسس بطنها المتكوّر وابنها يركلها فيه من آن لآخر، تذكّرت السّاحرة، سبّتها بأبشع الألفاظ وبصوت مسموع وهي تطالع المرآة، فهي لم تفعل شيئًا، لم تقتل «مَيلاء»، ولم تقتل ابنها كما وعدتها...

سكن القصر، كانت «سُندسُ» تتقلّب في فراشها كمدًا وغلًا، كانت تسمع أصوات الحرّاس وهم يتحدّثون بالخارج، سكنت الأصوات فجأة، فأصابها الرّهاب فسارت على أطراف أصابعها نحو الباب، فتحته فلم تجدهم! نادت على وصيفتها فلم يُجبها أحد، أغلقت الباب ثُمّ فتحته برفق ونظرت من خلال فُرجة صغيرة على الدرج فرأت رجلًا ملثّمًا يركض تجاهها، صرخت صرخة ارتجت لها أركان القصر وأغلقت الباب، لكنّه دفعه بسهولة ودلف فسقطت على الأرض، جرّها بقسوة نحو الشّرفة، كان يضع يده على فمها، فقدت وعيها فأسقطها على الأرض، وأخرج خنجرًا خطّافيًا وكاد يشقّ بطنها، سمع صوت خشخشة وطقطقة خلف ظهره، ثُمّ ضُرب على رأسه بقوّة ففقد وعيه، في الصباح التالي استيقظ جميع من بالقصر على خبرين غريبين، اختفت الأميرة «سُندس»، واختفى ابن «مَيلاء» الرّضيع! كان «خلدون» و«فِراس» يتخبّطان في حيرة، الحرّاس يفتشون كل شبر بالقصر، لا أثر لهما!

في خضمّ تلك الموجة من الأحداث التي أصابت أهل القصر بزلزال جعل كلًّا منهم يوجّه أصابع الاتهام للآخر، انقسم الحرّاس فصار لكلّ أمير مريديه، خرج الأمير «أشْهَم» مستترًا وذهب سيرًا على الأقدام لقرية «أوركا»، انهالت عليه طيور الوراشين من كلّ حدب وصوب، وقفوا على رأسه، وكتفيه، وغطوا ثيابه، كان يبدو ككومة من الرّيش وهم يغطّونه بأجنحتهم، منعوه من السيرِ وتخطّي الحدود وبدأت الطيور تنوح كلّما خطا خطوة للأمام، تذكّر «أشْهَم» كلمات «سَاهور»، تراجع نحو القصر فصاروا يرتفعون بانتظام واحدًا تلو الآخر وتركوه يعود، قرر أن يُرسل لـ«سَاهور» و«سنمّار»، هناك ما يودّ إخبارهما به، لا بدّ أن يرى ابنه في الحال.

20
مصارعة الأوركا

«حمزة».....

كُنت أسير على شاطئ البحر وحيدًا، اختبأ الجميع من المطر بينما كُنت أستعذب قطراته وهي تربّت على كتفي، توارت الشّمس خلف غيمات قاتمة فاختنق لون السّماء، فوجئت بضربة على ظهري فاستدرت في فَزع، وجدت أمامي شابًا من شباب «أوركا»، كانت عيناه كجمرتين مشتعلتين وهو يكزّ على أسنانه ويتأهّب لتوجيه ضربة أخرى لوجهي، تفاديتها وتراجعت خطوات للخلف، كان السّير على الرّمال صعبًا، وكان المطر يزيد، صحت فيه:

-من أنت؟ وماذا تُريد؟

لم يجبني، وبدأ يضربني بيديه ضربات متتالية، ثُمّ اقترب وبدأ يلف ذراعيه حول جذعي بعنف، اشتبكنا في مُصارعة عنيفة، كان يستخدم أظافره الطويلة، وأسنانه أحيانًا، فأصابني بالعديد من الخربشات والعضّات، شعرت أنني أصارع وحشًا ضاريًا، فبدأت أستخدم العنف معه، أصدرَ صيحات «أوركا» التي لم أفهم كنهها، أسقطني أرضًا وجثم فوق صدري وبدأ يخنقني، شعرت وكأنّ روحي تُغادر جسدي، رأيت لوهلة ظلًا مهيبًا ومخيفًا خلف جسد هذا الشّاب، رفع الشّاب يديه فجأة، وانتظر قليلًا، ثُمّ أعاد محاولة خنقي! وعاد الظلّ للظهور وهو يتلاعب في الهواء، رفع يديه عن عنقي للمرّة الثالثة وانتظر للحظات قصيرة وأعاد الكرّة، كدت أفقد وعيي لولا «سنمّار» الذي ظهر فجأة وضربه ضربة قويّة على رأسه فشجّها فأرداه قتيلًا، سالت دماؤه على صدري، فدفعت جسده الثقيل بعيدًا عنّي وجلست أستردّ أنفاسي، بينما وقف «سِنمّار» يلومني قائلًا:

-لماذا خرجت وحيدًا؟

-وددت أن...

قاطعني قائلًا وهو ينحني على جسد الشّاب الذي قتله للتوّ:

-هذا «حُنيشل».

قُلت وأنا أتحسس عنقي:

-ومن هو؟

قال «سِنمّار» وهو ينظر إليه بإزدراء:

-فرد من أفراد عصابة فاسدة من شعب «أُوركا»، كانوا يقتلون النساء، ويسرقون الأموال، ويغتصبون الفتيات، لهذا لم يجرؤ أحد منهم على العودة لبحر «حِندس» لأننا جميعًا توعدناهم بالقتل إن ظهروا في الماء، لكنّهم لَلأسف كانوا عصابة كبيرة العدد ولا

يُستهان بها، أرهقونا وتسببوا في الكثير من الفوضى بقريتنا حتّى استطاع «الدّواسر» أسر أجسادهم ونزحوا إلى وادي «الفراديس» قُلت مُتعجبًا من كلماته الأخيرة:

-ولكن كيف يسكنون جسدًا لمجرمٍ وسفّاح لا يعرف الخوف طريقًا لقلبه المُظلم؟

لاحت على شفتي «سِنمّار» ابتسامة ساخرة وهو يقول:

-أتظنّ أنّ الثغرة التي يدخل منها «الدّواسر» للأجساد هي الخوف فقط؟ بل هناك الخوف الشديد، والفزع الشديد، والانكباب على الشّهوات، وارتكاب الجرائم العظمى كالقتل والاغتصاب، وقتها يكون العقل محجوبًا وكأنّه في أوهن حالاته والنّفس في أضعف حالاتها، لأنّها أسيرة شهوة!

أدار «سِنمّار» رأس الشّاب المقتول وكشف جانب عنقه الأيمن وأشار إلى وشم غَريب منقوش على جلد الشّاب وقال:

-هذا الوشم الغريب يظهر على العنق فور أن يسكن الدّواسر الجسد.

بحركة رشيقة قام «سِنمّار» بحمل الشّاب وتوجه به نحو البحر ليلقيه فيه، ألقاه بالفعل فأخذهَ الموج بعيدًا، صاح «سِنمّار» وهو يهرول عائدًا حيث كنت أجلس:

-أفراد العصابة يتسللون للقرية من آن لآخر، هؤلاء فقط من نقتلهم في الحال عندما نكتشف وجودهم بيننا، لأننا نعرف أفراد العصابة جميعًا، أمّا البقية فنتجنّب قتلهم لعلّهم يعودون لرشدهم يومًا ما.

ثُمّ أضاف وهو يرميني بنظرة يملؤها الارتياب:

-يبدو أنّ حياتك تعني الكثير لـ«الدّواسر»، لم يقتلك «حُنيشل» في الحال، بل صارعك، وكان يقدر على قتلك بسهولة، فهو يفوقك في قوّة البدن، كما أنّه يستطيع قطع عروق رقبتك بأسنانه كما اعتاد أن

يفعل، رأيته يحاول إضعافك ثلاث مرّات بخنقك، وأظنّها محاولة من الدّواسري الّذي يسكن جسده، أراد أن يُخيفك ليحتلّ جسدك لكنّه لم يتمكّن! يبدو أنّك لا تخاف من الموت يا «حمزة»!

أجفلت عندما ذكّرني بالموت فقُلت بخفوت:

-الموت!

رفع «سِنمّار» حاجبيه قائلًا:

-نعم...الموت!

-أخي «خالد» هنا، ويحتاج لمُساعدتي، فإن كتب اللّه عليّ الموت هنا، فأسأله أن يكتب لأخي النّجاة مما هو فيه قبل تلك اللحظة.

قال «سِنمّار» بفضول شديد:

-وددت أن..أعرف عن أخيك «خالد» أكثر، فـ«سَاهور» شحيح الكلام، ولم يُخبرني بكلّ شيء عنك، وتلك هي المرّة الأولى التي ألتقي فيها بمُحارب!

توقّف المطر، جُلنا في السّماء بأعيننا، كُنّا نرتجف من شدّة البرد، ابتسم «سِنمّار» ومدّ يده ليُساعدني على الوقوف وهو يقول:

-قبل أن نعود إلى بيت الضيافة، لا بدّ أن تتدرّب على مصارعة الأُوركا، فسوف يعيدون الكرّة ويُلاحقونك من آن لآخر.

-فليكن هذا غدًا يا «سِنمّار».

دفعني «سِنمّار» في صدري بعنفٍ وقال:

-بل الآن!

-ولكنني....

لم يترك لي فرصة لأُتمّ كلماتي، انقضّ عليّ وأحاط جذعي وذراعي بذراعيه وصاح قائلًا:

-هيّا، خلّص نفسك من بين يديّ.

كان يعصرني عصرًا، حاولت تحرير ذراعيّ لكنّني لم أتمكن، كنا نسير بخطوات عشوائية ونحن ملتصقان معًا، تذكّرت كيف ضربني بجبهته على جبهتي عندما تشاجرنا في القرية، ففعلت كما فعل معي وضربت جبهته بجبهتي، فحررني في الحال وتراجع وهو يبتسم قائلًا:

-أحسنت يا بطل.

أصابني ارتباك شديد! تلك كلمة أخي «خالد»...«يا بطل»، نظرت في عينيه لعلّني أجد إشارة تطمئنني أنّه هو، قال وهو يدور حولي:

-لو استخدم خصمك أسنانه ليقوم بعضّك اضغط على عينيه أو حاول خنقه، وعندما يبتعد سدد إليه ضربة تكسّر أسنانه الأمامية في الحال.

ثُمّ صار يقترب ويتراجع وكُنت متأهّبًا لضربة فجائية منه، قال وهو يبتسم:

-الأظافر لن تضرّك اتركهم يخمِشُوك، تلك الجراح والخربشات أوسمة، يومًا ما ستبرأ وتندمل، وسيختفي الألم وتبقى ندبة، لن توجعك، لكنّك في كلّ مرّة تمرّ عليها بأناملك ستتذكّر هذا الدّرس الذي تعلّمته وأنت تخوض معاركك فقد كانت سببًا في فوزك لأنّك تحمّلتها، ركّز فقط في تسديد ضربة مميتة لهم تقضي عليهم وعلى الكيان الأثيري الدّواسريّ الذي يتلجلج بين أضلعهم.

صحت بحماس وكانت ثيابي المبتلّة من المطر تعوقني عن الحركة السريعة مثله، كما أنّني لم أعتد السير بخفّة والرّكض على الرّمال، أمّا هو فاعتاد هذا، أضاف وهو يثب بخفّة ورَشاقة:

-أنت قويّ، تحتاج فقط للتركيز، توقّع الضربة قبل وقوعها، أنصت لجوارحك، لا تعتمد على عينيك فقط، راقب أنفاس خصمك، واقرأ حالته النّفسية.

في حركة سريعة وخاطفة وثب «سِنمّار» فوق صدري كالنّمر المتوحّش وأسقطني أرضًا ليجثم على صدري، أصدر صيحة من صيحات الأوركا وصاح بحماس:

-استجمع قوّتك وادفعني بقبضتيك وأبعدني عن صدرك قبل أن يزداد ضعفك.

فعلتُ كما قال لي، ودفعته بعيدًا، فابتعد ثُمّ دار برشاقة وانتقل خلف ظهري وخنقني بذراعه، قال وهو يشدد الضغط على عُنقي:

-أسرع بتخليص نفسك قبل أن تختنق، استخدم قدميك وكوعيك.

استخدمت قدمي بالفعل وضربته في ساقه، واستدرت بقوّة وضربته بأقصى قوّتي في جانب صدره فأصبت ضلعًا، تركني فورًا وانحنى متألّمًا فسألته متعجّبًا:

-ما بك يا «سِنمّار»؟

قال وهو يُحاول إخفاء ألمه:

-لقد كسرت ضلعي!

-أنا....

قاطعني قائلًا:

-لا بدّ أن أتحوّل الآن.

ركض «سنمّار» نحو البحر، مرّت دقائق ثقيلة وأنا أنتظره، من بعيد رأيت حوتًا ضخمًا يقفز في الهواء، ثُمّ يَغوص، انتظرته طويلًا ليقوم بإلقاء نفسه على الشاطئ ويعود لهيئته البشرية، ولمّا طال غيابه عُدت

إلى بيت الضيافة، وأنا أتفكّر في سبب إسراعه للتحوّل، فأدركت أنّ هذا سيُجدد ضلوعه، وسيتخلّص حتمًا من ضلعه المكسور، وعندما يستردّ هيئته البشرية، سيكون سليمًا.

صوت هدير العاصفة بالخارج يزداد، الأمطار تدقّ الأرض بقوّة حاملةً ندفًا من الثلج، فزع «هُرهُور» من صوت الرّعد وكان نائمًا فقد أرهقه اللعب طوال النّهار فاقترب «حمزة» منه وربّت على ظهره وطمأنه فعاد الغلام للنوم، كان «حمزة» قلقًا على السيّد «هشام»، فهو لم يعد حتّى الآن، مرّت ساعة كان يتفكّر فيها وهو يتأمّل المطر من النّافذة، وفور أن توقف المطر، طرق السيّد «هِشام» الباب وكانت معه «مُورفو»، عادا متعبين وكأنّهما كانا في رحلة طويلة، سألهما «حمزة» عن هالة الحزن التي تحيطهما فأجاباه أنّهما بخير، وأنّ الصغيرة «مَرمَر» كانت متعبة عند وصولهم، لكنّها الآن أفضل، دلفت «مُونارش» وكانت قد سمعت عن وصولهما فعانقت «مُورفُو» وهي ترتجف، بدت «مُونارش» شاحبة وشكت من علّة في بدنها وصداع شديد، تناولت على عجلٍ ما أمدّتها به رفيقتها من ترياق وكانت قلقة من لقاء «مُورفُو» بـ«السيّدة الملوّنة» و«الآنسة الزرقاء» فسألتها:

-هل التقيت بـ«السيّدة الملوّنة»؟ وهل سألتك «الآنسة الزّرقاء» عنّي؟

-لم ألتقِ بهما، تسللت خلسة وأحضرت الترياق، وأوصيت أم «مَرمَر» ألّا تخبَر أحدًا عنّا وعن لقائها بنا، تركناها على حدود الغابة وهي أكملت وحدها، فالطريق أمان ولا يوجد أمطار هناك!

تنهّدت «مُونارش» وقالت وهي تبتسم:

-الحمد لله، ولكن لماذا تأخرّتما كلّ هذا الوقت؟

-السيّد «هشام» هو السبب، صحبنا في جولة قبل أن ينقلنا إلى غابة البَيْلَسَان، سأخبرك عنها لاحقًا.

هزّت «مُونارش» رأسها وقالت:

-حدث الكثير أثناء غيابكما، لقد ظهرت امرأة عجوز وأخبرتنا عن ولادة «هُرهُور»، و..

أمسكتها «مُورفُو» من ذراعها وقالت لها:

-اهدئي وتعالي معي.

كان «حمزة» يُنصت لحوارهما، وكان قد رأى السيّد «هشام» و«مُورفُو» بعيني «الدّيسق» وهما يتحدّثان إلى السيّدة الملونة داخل غابة البَيْلَسَان، آثر الصمت، كان يعرف أنّها تكذب، ولكن لماذا؟ انصرفت الفتاتان بعد أن هدأ المطر، سارتا نحو قصر الملكة «أهاليل» لتبيتا هناك. بدأت الشكوك تهدهد عقل «حمزة» المزدحم بالأفكار، حاول أن يتحدّث إلى السيّد «هِشام» عن رحلته مع «مُورفو»، وفاجأه أنه يوافقها فيما روته عن أنّهما لم يلتقيا بالسيّدة الملوّنة، وأوصلا «مَرمَر» وأمّها وانصرفا في الحال، زاد الأمر سوءًا عندما سأله السيّد «هِشام» بارتياب:

-هل زارك «الدّيسق» اليوم؟

شعر «حمزة» أنّه قلق ويخفي عنه شيئًا ما، فأجابه باقتضاب:

-نعم.

-وهل رأيت شيئًا مريبًا؟

هزّ «حمزة» رأسه وقال:

-رأيت مراسم تتويج «خلدون» بعد وفاة أبيه، لم ينجحوا في تنصيبه رسميًا حتّى الآن، رأيت طيور الوراشين وهي تُهاجمهم بشراسة،

فأبلغت «سَاهور» و«سنمّار» وجدّهما الملك «قاموس» بما حدث، ونصحتهم أنّ الوقت مناسب لكي نُعلن عن وجود «هُرهُور»، وحدث هذا بالفعل.

-مهلًا مهلًا، أُريد أن أعرف كلّ شيء .

قال «حمزة» وهو يطالعه بنظرة تشي بالكثير:

-وأنا أيضًا، أُريد أن أعرف كلّ شيء.

ثُمّ أمسك بذراع السيّد «هشام» أعاد كلماته:

-كلّ شيء يا سيّد «هشام»...كلّ شيء.

التفت السيّد «هشام» نحو «هُرهُور»، تأكدّ أنّه غارق في النوم، وجلس مع «حمزة»، ودار بينهما حديث طويل، وكان لا بدّ من قراراتٍ سريعة، الآن «حمزة» يُقرر ويُخطط، وهو من سيتحمّل توابع قراراته.

-أين «هُرهُور»؟

قالها «سِنمّار» غاضبًا وهو يسأل «حمزة»، فأجابه قائلًا:

-في مكان آمن.

كان «سِنمّار» يتميّز غيظًا وهو يقول:

-ليس من حقك أن تخفيه يا «حمزة»!

رفع «حمزة» بصره نحوه وقال:

-بعد ما سمعناه عن اختفاء الأميرة «سُندس» من القصر، وكذلك ابن الأمير «خلدون» صارت حياته في خطر، وأنا مسئول عنه.

قال «سِنمّار» غاضبًا:

-وكيف عرفت باختفائهما؟

-لديّ طُرقي الخاصّة!

زفر «سِنمّار» بحنق قائلًا:

-لست مسئولًا عنه، ولست من أقربائه! هو منّا ونحن منه، فأمّه من شعب «أُوركا».

قال «حمزة» مستنكرًا:

-وأبوه؟ أليس ابن عمّك يا «سِنمّار»؟

-بلى، ولهذا هو يعنينا ولا يعنيك!

قال «حمزة» بثقة:

-بل يعنيني، فقد عاهدت «مُولي» أن أحفظ الأمانة.

-أيّ أمانة! حتى «مُولي» لا يملك أن يُحمّلك أمانته، أفصح عن مكانه، سنُعيده لوالده، وانصرف أنت لتتم مهمّتك وتسترد كتابك، ألست محاربًا؟

-بلى أنا مُحارب، ولهذا لن أرحل قبل أن أطمئن على «هُرهُور».

دفع «سِنمّار» «حمزة» في صدره وقال بتنمّر:

-يبدو أنّك تحتاج للتأديب.

جذبه من ثيابه وخرجا من بيت الضيافة، وبدأ بينهما شجار عنيف، كان كلاهما يكيل الضربات للآخر دون توقف، حاول السيّد «هشام» التدخّل لكن «سنمّار» أزاحه بضربة واحدة على صدره كادت تقضي عليه، في غمضة عينٍ كانت «مُورفُو» فوق ظهر «سِنمّار» بوثبة واحدة، غرزت في رقبته شوكة رفيعة فسقط على الأرض ثابتَ الحركة ومتشنّج العضلات، كاد شباب «أُوركا» يفتكون بها ألا أنّها سحبت سيفها ووضعته على عُنق «سِنمّار» وكان «حمزة» خلفهما فصاحت قائلة:

-لا تمسّوا شعرة من رأس «حمزة» وإلّا!

تراجعوا في حذر، أقبلت «مُونارش» في هلع فأمسك السيّد «هشام» بيدها وأقبل وهو يسحبها معه ووقفوا جميعا بجوار «سِنمّار» وهو ممدد على الأرض، قال «حمزة» وهو ينثني على بطنه أثر ضَربة من ضربات «سِنمّار» كانت قد أصابت ضلعًا من ضلوعه:

-ماذا فعلتِ به يا «مُورفُو»؟

مالت عليه هامسة وقالت:

-لا شيء، تلك الشوكة ستشلّ حركته لبضع دقائق فقط.

رفع «حمزة» بصِره تجاه السيّد «هشام» وهزّ رأسه ففطن لمراده، أخرج الخريطة والأَسْطُرلاب ووضعه على بقعة ما، قامت «مُورفُو» بسحب الشوكة من عنق «سنمّار»، بدأت الوشاج تظهر متعلّقة في الهواء فوق رؤوسهم، تعلّقوا بهاَ واختفوا تباعًا، السيّد «هشام» ثُمّ «حمزة»، رفضت «مُونارش» أن تُمسك بالوشائج، لا ترغب في الرّحيل فقلبها عالق هنا، صاحت في هلع ونادت على «سَاهور» الذي كان يسير تجاههم بعد أن علم بما حدث، كان شباب «أوركا» يطالعون «مُورفُو» بتنمّر ويحاولون الوصول إليها، فتعلّقت بالوشيجة الأخيرة واختفت، وسقطت «مُونارش» على الأرض فقاموا بالقبض عليها في نفس اللحظة التي وصل فيها«سَاهور» ليسأل عن أخيه «سنمّار» فوصفوا له ما حدث، أقبل يتحسس رأس أخيه وهو ممدد على الأَرض، وسأل من حوله:

-هل هذا سمّ؟

أجابته «مُونارش»:

-لا يا «سَاهور»، تلك مادة تصيبه بالشلل الوقتي لدقائق فقط تستخدمها حارسات الحدود لتشل جسد من يهاجمها، سيعود «سِنمّار» لطبيعته بعد قليل.

تنهّد «سَاهور» في ارتياح وقال:

-الحمد للّه.

بدأوا يضربونها فصرخت تستغيث بـ «سَاهور»، فوقف غاضبًا وضرب الأرض بعصاه وصاح بصوت مجلجلٍ كما لم يفعل من قبل قائلًا:

-ارفعوا أياديكم عنها!

رفع القوم أياديهم عنها فور أن سمعوا كلمته، فهو وشقيقه أحفاد الملك الذي لا تُرد كلمته، وكان لكليهما مهابة ومكانة عظيمة بين أفراد شعب أُوركا، فهرعت «مُونارش» إليه وأمسكت يده، وكانت تلك المرّة الأولى التي يلمس فيها «سَاهور» يد فتاة، أصابه الحرج، وشعر بقلبه يرتجف، تركت «مُونارش» يده وتوارت خلف ظهره لتحتمي به، شعر باضطراب يشوبه شبح فرحة خفيفة، فقد أسعده أن تحتمي به، بدأ «سِنمّار» يستعيد قدرته على الحركة، واعتدل جالسًا، كان يرشق «مُونارش» بنظرة عدائية ناقمة، ثبت عينيه على يدها وهي تتشبث بذراع أخيه، فمرر يده على عنقه في إشارة تعني... سأقتلك!

وقفت «مُونارش» فريسة للخوف والحزن، في تلك اللحظة شعرت بالندم، كيف لم ترحل مع «مُورفُو» و«حمزة» والسيّد «هشام»، الآن هي غريبة وسط قرية من الوحوش كلّهم ناقمون عليها، حتى الشاب الوحيد الذي تُحبّه لن يستطيع الدّفاع عنها فهو لن يقف أمام أخيه من أجلها، لم تجد من يحنو عليها أو يُربّت على كتفها، رحل «سَاهور» إلى معبده النائي بعد أن أوصلها لقصر أُمّه التي كانت ساخطة وغاضبة عليها بعد أن علمت بما حدث لـ«سِنمّار» من رفيقتها «مُورفُو»، لم تستقبل الجواري «مُونارش» بالقصر، غُلّقَت الأبواب في وجهها، فجلست تبكي في الحديقة، واختلطت دموعها بماء المطر الهتون..

استغرق البحث عنها بالأَسْطُرلاب محاولات عديدة، فقد تنقّل السيّد «هشام» مع «مُورفو» أكثر من خمس مرّات في جنبات قرية «أوركا» حتى عثروا عليها في الحديقة، وأخيرًا قبلت أن تنتقل معهم إلى حيث كان «حمزةٍ» ينتظرهم، وتعلّقت بوشيجة من الوشائج وهي تبكي، ورحلت عن قرية «أوركا» وتركت قلبها معلّقًا هناك..

على أطراف قرية «أُوركا» كان «سَاهور» يقف أمام المعبد البسيط الذي يلزمه، خلع حذاءه الحديدي، وملابسه الثقيلة، وألقى الحجرين الثقيلين المربوطين على خصره، ووقف حافي القدمين على الأرض ورفع وجهه للسماء يستقبل ماء المطر، لم يرتقِ في الهواء، وكيف له أن يفعل وهو الآن يشعر أنّه مثقل بالذّنوب، كيف لَه أن يستعذب لمسة يدها بتلك الطريقة وهي لا تحلّ له، وهو العابد المتبتل، طأطأ رأسه في خجل، كان يتمتم محاورًا ربّه بأنّات خافتة، أراد الله لقلبه أن ينكسر بهذا الذّنب حتى لا يكون هناك مكان لعجبه بنفسه بعد أن علم الجميع بما حدث عند بئر «دِرْواس»، وبأنّه يشبه والده، ظلّ على حاله كتمثال من الزّجاج، وكان ماء المطر يزداد كثافة ويغرقه، كان يختلج ويشب في مكانه من شدّة البرد، أراد أن يغسل باطنه أيضًا ويتخلّص من تأنيب ضميره، لكنّ هذا أمر أعمق من الوقوف تحت الماء، لا يُرى بالعين، بل يحتاج لغسيل من نوع آخر...

في اللحظات الأكثر قتامة التي نمرّ بها، ينكسر فينا شيء، يَجبره حنوّ الآخرين علينا وإن لم يفعلوا غير التربيت على ظهورنا، وتقبيل جباهنا، والتقاط عبراتنا بأطراف أكمامهم، وهذا ما يدفعنا للوقوف مرّة أخرى، وتكرار المُحاولة، مهما بلغت قوّتنا فنحن نحتاج للآخرين، نحتاج لمن نستند عليه ليثبّتنا، و«سَاهُور» يُبعد الآخرين عنه منذ وفاة أبيه، لا بدّ أن يعود لأهله، فهو يحتاجهم ليخفضوا له جناح الذّل من الرّحمة، ويحتاج إلى الحبّ...

وثب السؤال من عتمة أفكاره، لماذا لا يعود صباحًا ليطلب «مُونارش» للزواج؟ فهو في حاجة لهذا السكن، ولكن هل سترضى به وهو هجين؟ بل وهو ضرير!

وهل ستقبل أمّه بزيجته تلك من فتاة من «الحورائيات»؟

وهل سيسمح جدّه الملك «قاموس» بحدوث هذا؟

حمل ثيابه وحذاءه وعاد يتحسس الطريق إلى الدّاخل ورأسه يضجّ بالأفكار، وبات ليلته وقد أعياه المرض.

فزعت «مُونارش» عندما وجدت أنّهم أعادوها إلى غابة «البَيْلَسَان»، وقفت تلوم رفيقتها «مُورفُو» قائلة:

-لماذا عدنا إلى هنا؟ أنتِ تعلمين أنّني لا أرغب في العودة إلى الغابة.

قال السيّد «هشام» ليُهدئها:

-«مُونارش»، لا تخافي يا ابنتي، لن يمنعك أحد من العودة لقرية «أوركا»، فالجميع هنا يعلم بما حدث لك، لقد التقينا بالسيّدة الملوّنة عندما أتينا مع «مَرمَر»، وهناك ما يجب أن تعرفيه!

تسارعت دقّات قلبها وسألته:

-ماذا؟ أخبرني أرجوك؟

أقبلت «السيّدة الملوّنة» وحيّتها بحبور، كانت تنتظر وصولهم مع «حمزة»، وفوجئت «مُونارش» بوجود «هُرهُور» بغابة «البَيْلَسَان»! كما فوجئت بنشاط «مَرمَر» التي صارت أكثر قوّة وحيويّة من ذي قبل، وكانت أمّها تلاحقها في سعادة وهي تركض مع «هُرهُور»، هشّت أمّ «مَرمَر» لـ«مُونارش» فور أن رأتها واحتضنتها، وانصرفت خلف ابنتها وهي تركض

مع الغلام لتراقبهما، وكانت «مُونارش» عالقة في فقاعة من الحيرة، تودّ أن تفهم! ما الشيء الذي لا بدّ أن تعرفه؟

لاحظت «السيّدة الملوّنة» حيرتها، فأمسكت بذراعها وساروا جميعًا بخطوات هادئة نحو قصرها وهي تقول لـ«مُونارش» بصوت منضبط:

-أتذكرين تلك الهمسات التي كنت تسمعينها يا «مُونارش»؟

-نعم يا مولاتي..عن قصة حب بين شاب وفتاة و...

قاطعتها «السيّدة الملوّنة» سائلة لها:

-ألم تلاحظي شيئًا ما؟

-أيّ شيء؟

-أنّك مثلًا تمرّين ببداية تُشبه تلك التي كنت تخبريننا بها، فتاة تبحث عن الحب، وشاب زاهد فيه، والتقيا على حين غفلة في ليلة ممطرة و...

قاطعتها «مُونارش» بشهقة استوقفتهم جميعًا، انتبهت الفتاة لما يحاولون لفت نظرها إليه، كانت تسمع همس الريّاح عن قصّتها هي، همسات عنها وحدها، وعن «سَاهور» وحده، أردفت «السيّدة الملوّنة» وهي تسحبها من ذراعها:

-هل ما زلت تسمعين همس الرياح لك؟

أجابتها «مُونارش» نافية بتعجّب:

-لا..توقف منذ خروجنا من غابة «البَيْلَسَان».

قالت «السيّدة الملوّنة» بثقة:

-لا بدّ أن يحدث هذا، لقد تعرّضت «مَرمَر» لحالة من الارتجاج والاهتزاز فور وصولها للغابة، لقد نُقلت إليها مهمّتك، وهي الآن تسمع بقيّة القصّة، لقد ظلّت تُرددها بعد أن دلفت مع السيّد «هشام» و «مُورفُو»، أخبرتنا بما تمرّين به، وستهمس بها لكاتب ما.

قالت «مُونارش» بحيرة:

-هذا يعني أنني...

-أنّك ما عُدت من بنات الأفكار يا «مُونارش»، لقد زهدْتِ في مهام الحورائيات بنفسك وتخلّيت عنها بإرادتك.

قالت «مُونارش» بتوتّر:

-فليكن، من حقّي أن أختار طريقي في الحياة! لستُ مسئولة عن مؤلفي الكتب والروايات!

همست «السيّدة الملوّنة» لها:

-لا نلومك، لكنّك فقدت ميزة عظيمة.

-وما هي؟

أطلقت «السيّدة الملوّنة» تنهيدة وقالت:

-حتّى وإن وقعتِ في الحبّ وتزوّجت لن تخوضي الطور الملكي، لأنّك لم تؤدِي مهمّتك وواجباتك التي تنالين الامتيازات بناء على أدائها.

قالت «مُونارش» بحزن شديد:

-هل هذا يعني أنني لن أمرّ بطور النضوج؟

-ستنضجين لا ريب بطريقة ما، ولكنّك لن تتغيري مثل الملكة «الحوراء»!

سألتها بقلق:

-سأظلّ قبيحة هكذا؟!

غضنت «السيّدة الملوّنة» حاجبيها بضيق وقالت:

-أنت ترين نفسك قبيحة، وقد يراك البعض هكذا، لكنّها ليست الحقيقة! ألم يُخبرك «سَاهور» أن الجمال شيء يُحسّ و...

قاطعتها «مُونارش» قائلة:

-وكيف عرفتِ بحديثي مع «سَاهور»؟
قالت «السيّدة الملوّنة» بتأثّر:

-أنسيتِ أنّ «مَرمَر» تروي قصّتكما الآن، وتُخبرنا بما يحدث بينكما!
تجمّدت شفتا «مُونارش» ولم تنطق بكلمة واحدة، رفعت بصرها بوهن تجاه «السيّدة الملوّنة» وسألتها:

-هل أخبرتكم «مَرمَر» أنني سألتقي بـ«سَاهور» مرّة أخرى؟
قطّبت «السيّدة الملوّنة» جبينها وقالت:

-نعم، وما زلنا ننتظر الجديد، فكما تعلمين هي تحكي لنا ما يحدث فور حدوثه، و...
قاطعتها «مُونارش» قائلة بيأس:

-الأمر ليس بيدها، وليس من الصواب الضغط عليها، فما هي إلّا مجرّد ناقلة للأحداث لخيال الكاتب في عالم آخر، أعرف ما تشعر به تلك الصغيرة.
ثُمّ شردت «مُونارش» قائلة:

-ترى لماذا تأخّرتُ عن همسي لكاتب حتّى وصلت لعمري هذا؟ ليتني سمعت همس الريّاح وأنا طفلة صغيرة مثلها!
قالت «السيّدة الملوّنة» بحنكة:

-نحن نخرج للحياة ومعنا كلّ الميزات، وكلّ العيوب، وكل المخاوف، وكلّ الفرص، ولكلّ منا دور هام ليؤديه، ودورك ليس هنا، فكوني قويّة يا «مُونارش»، فالحياة كالبحر، لا تنتظري الموج ليحملك، كوني أنت موجة شاهقة كالجبال، اصطدمي، وتبعثري حيثما شئت، فأنتِ حرّة!

وصلا لبوابة القصر، ودلفوا تباعًا، كان «حمزة» شاردًا، يُفكّر في مدينة «وَرَاشين»، أراد «حمزة» أن يصلح ما يدور هناك، قال «حمزة» في يأس موجهًا كلامه للسيّد «هِشام»:

-ظننت نفسي ارتحت من اللهث عندما حصرت احتمال كون أخي بين «سَاهور» و«سنمّار»، فوجدت نفسي أركض على مضمار آخر لا أدري إلى أين سيأخذاني، ربّما يكون أخي بين أمراء «وَرَاشين» الثلاثة، ومحاولات كلّ منكم الإطاحة بأخيه ستؤذيني في أخي.

قال السيّد «هشام» وعينان تجوسان في قلق:

-وماذا لو ماتت الشخصية التي حلّ فيها أخوك «خالد»؟

-لا أدري يا سيّد «هِشام»...لا أدري!

قال السيّد «هشام» وهو يفرك ذقنه:

-لنسأل حرّاس المكتبة العُظمى لنطمئنّ، ما رأيك أن نذهب إليهم؟

قال «حمزة» بحماس:

-فليكن هذا، ولنذهب الآن.

قال السيّد «هشام»:

-اترك الجمجمة هنا، فأنا لا أثق بتلك العفريتة التي تسكنها، ونحن سندخل المكتبة العظمى، ولا بدّ أن ننتبه.

أخرج «حمزة» الجمجمة، ودفنها تحت شجرة عتيقة من أشجار غابة «البَيْلَسَان»، ووضع عليها علامة ليتمكّن من العودة إليها مرّة أخرى في وقت لاحق، كانت «رَيْهُقانة» تقبع بداخلها في ضجر شديد، يومًا ما ستُلقّن هذا الرّحالة درسًا قاسيًا..

هزّ السيّد «هشام» رأسه، ثُمّ أَخْرج الأَسْطُرلاب ووضعه فوق الخريطة حيث تقع المكتبة العظمى، وانتقلا إلى هناك، وكان حرّاس المكتبة في اجتماع يتدارسون أمرًا هامًا، أحدث ظهور «حمزة» جلبة عظيمة، وقاموا

إليه وكأنّ زائرًا عظيما دلف للتوّ، كان «حمزة» يقلّب بصره بين وجوههم المضيئة وهم يصافحونه، شعر بإجلال وهم يعرّفونه بأنفسهم، وشعر بالفخر عندما سمع منهم كلمات التقدير لأبيه وجدّه و«أبادول»، كان السيّد «وضّاح» بينهم، قال كبير حرّاس المكتبة وهو يدعوه للجلوس:

-لا ريب أنّك في غاية القلق على أخيك «خالد».

-هل استطعتم تحديد الشخصية التي زار المملكة في هيئتها؟ وهل إن ماتت تلك الشخصية ستتعرّض حياة أخي للخطر؟

-تعلم أننا لن نعرف الشخصية إلّا بعد رحيله يا «حمزة»، أمّا تعرّضه للخطر فـ...

صاح «حمزة»:

-ماذا؟

-جائز جدًا، وقد يموت بالفعل...فقد حدث هذا لأحد الزائرين قديمًا للأسف.

اقترب «وضّاح» وقد تغيّرت ملامح وجهه وقال معتذرًا:

-أشعر بالذّنب، فتح ممر «أَمَانوس» خطأ عظيم، وتلك المهمّة أنا الوحيد المنوط بها هنا.

قال حارس آخر بدا أنّه أكبر مقامًا من «وضّاح»:

-تعلم أنّ هذا الكتاب اللعين هو السبب وليس أنت يا «وضّاح»، ما زال «ساجور» السّاحر يعبث بالكتب في الخفاء، وقد عاون «الدّواسر» لكي يسترد تلك الكتب البائسة.

قال «حمزة» وهو يتعجّب:

-أين «المجاهيم»؟ وأين «المغاتير»؟ ظننتهم سيظهرون ويقضون عليهم في وادي «الفراديس»!

تبادل الحرّاس النظرات، قال كبيرهم وهو يحرّك يديه في الهواء:

-الآن بيننا وبين «المجاهيم» حاجز عظيم، اِنقطع اتصالنا بـ«الزّاجل الأزرق» وجيشه و«المغاتير»، فتح ممر «أَمَانوس» أحدث خللًا في توازن مملكة البلاغة، الأمر يُشبه تمزّق القارات وانفصالها وتغير طوبوغرافية المكان وخريطته، ولا ندري هل ما زالت «الحوراء» تنصت لهمسات الرّياح أم لا!

هدر «حمزة» قائلًا:

-أغلقوه إذًا!

مر شبح ابتسامة مخنوقة على وجه كبير حرّاس المكتبة وهو يقول:

-ليس قبل أن يعود أخوك إلى وطنه! وهذا الأمر سيحتاج منك أن تُنهي مهمّتك، وتتصدّى للدّواسر، فزوال سيطرتهم على ممر «أَمَانوس» سيحرر «خالدًا» من أسْرِه في جسد الشخصية التي حُبس فيها، فقم بمهمّتك وحدك!

-وحدي!

-نعم، ستذهب إلى وادي «الفراديس» وتلتقي بزعيمهم، ثُمّ ستصعد إلى زنازنهم التي كان جدّك قد سلسلهم فيها بوديان جبل «أَمَانوس»، لا بدّ أن تلتقي بـ«مَردان»، سأرسل له «بُرهان» برسالة ليستعد.

-ومن هو «مَردان»؟

-عملاق من عمالقة قبيلة «هيمبا»، وهو حاجب سجون جبل «أَمانوس»، يعيش هناك وحده ليقوم بحراستِهم، سيدرّبك لتعيد أسر زعيم «الدّواسر» وتُسلسله هناك، وفور أسره أو...قتله، سيُزال الحاجز بيننا وبين «المجاهيم»، وسيعود تواصلنا سهلًا وسريعًا كما كان، وعندها أعدك أن يصل «المجاهيم» إليك في غمضة عين ليساعدوك لأسر بقيّه «الدّواسر».

-ولم لا أقتلهم جميعًا.

ران عليهم الصمت للحظات، تبادل حرّاس المكتبة النظرات، قال كبير الحرّاس بصوت تشوبه رنّة قلق:

-ليس من الصواب قتلهم، أصحاب الكيانات الأثيرية كـ«المجاهيم»، و«الدّواسر»، قواهم لا تفنى بل تورّث، وتنتقل ممن مات لفرد آخر من عشيرته، فتتعملق وتزيد، وقد يخلق هذا قوّة يصعب قهرها والتغلّب عليها، وهذا يعني أنّ قوّة «غيهبان» الذي قتله «أبادول» انتقلت لغيره!

قال «حمزة» متعجبًا:

-وكيف سأقومِ بهذا وحدي!

-كما فعلها «أبادول» وحده يا «حمزة»!

-ولكن...

قاطعة كبير حرّاس المكتبة قائلًا:

-أنت تستطيع، فقط اختر أن تُصدّق أنّك تستطيع بحول الله وقوّته، أعلم أنّ الشّك دومًا يلوح في الأفق، فلا تقبله... أرجوك!

ثُمّ تغيّرت نبرة صوته وهو يقول بوقار شديد:

-علّمني «أبادول» مقولة لرجل عظيم كان دومًا يُرددها: «الفرج يأتي عند انقطاع الرجاء بالخلق»، فاقطع رجاءك منّا وممن حولك جميعًا يا ولدي تُصب ما أصابه جدّك.

ثُمّ التفت كبير حرّاس المكتبة إلى السيّد «هشام»، ومدّ يده إليه وعيناه تحمل الكثير من التأثّر، وقال بصوت تشوبه رنّة إشفاق:

-أعلم أنّ تخلّيك عن «الأَسْطُرلاب» صعب يا «هشام»، لكنّه الآن يِحتاجه، فلتعطه لـ«حمزة»، ولتبقَ في ضيافتنا حتى ينتقل لجبل أمانوس» ويلتقي بـ«مَردان» ويدبّر أموره.

نطق «هشام» بصوت مرتعش وقال:

-ولماذا لا أذهب معه؟ تلك وسيلتي الوحيدة للانتقال، لو فقدتها سأفقد الشغف الوحيد الذي يهوّن عليّ ما سقطت فيه هنا!

أغمض كبير الحرّاس عينيه وقال وهو يدقق كلماته التي تخرج من بين شفتيه:

-لن تتحمّل ما سيراه هناك.

أجفل «حمزة» عندما سمع تلك الجملة الأخيرة، وقبل أن يفتح فمه نقل كبير الحرّاس عينيه وغرسها في عيني «حمزة» وهو يقول:

-أخوك يحتاجك! وهذا الدّافع يكفي لتتحمل!

ران عليهم صمت مهيب، كانت المكتبة في حالة صمت وسكون، حتى هسهسات الكتب على الرّفوف سكنت، أخرج السيّد «هشام» الأَسْطُرلاب والخريطة وأعطاهما لـ«حمزة»، كان يبدو محزونًا، فاندفع «حمزة» يعانقه، فقال وهو يربّت على ظهره:

-لن أرحل من هنا يا «حمزة»، فليس معي وشائجي العجيبة التي أتعلّق بها لتُسلّيني، كن بخير وعد سريعًا يا فتى.

وقف «حمزة» حائرًا، بدأ حرّاس المكتبة يحفّزونه، فتح الخريطة وبدأ يتمعّن فيها، أشار السيّد «هشام» إلى جبل «أَمانوس» ثُمّ وادي «الفراديس»، وأوضح له مكان المكتبة العظمى، وغابة «البَيْلَسَان» وقرية «أُوركا»، ومدينة «وَرَاشين»، لكي يتمكّن من الانتقال بينها كيفما يشاء، أمسك «حمزة» الأَسْطُرلاب» وسحب نفسًا عميقًا، ووضعه على موقع جبل «أَمَانوس»، وانتقل إلى هناك.



21
جبل «أَمَانوس»

«حمزة».....

صفير الرّياح كان يدوي فوق سفح جبل «أَمَانوس» وقد لفّه الضباب من كلّ صوب، أحسستُ بلسعات الرّمال التي تحملها الرّياح كوخزات إبر على بشرتي، كنت أتلمّس الطريق مترنّحًا، أسير وأنا مبطّن بالقلق، مجرّد أن داهمتني الفكرة المروّعة أنّني الآن وحيد هنا أصابتني بهزّة داخلية، فوقفت أتأمّل السماء، وحاولت استعادة يقيني وانطلقت أدعو اللّه أن يثبّت فؤادي.كان المكان يطفو حولي في تموّجات هستيرية، ثمّة أصوات لا أدري كنهها ولا مصدرها، زئير مخيف، صراخ مكتوم، عواء، همهمات مروعة، أخذتُ أقدح زناد فكري، إلى أين سأسير؟ وماذا سأفعل؟

حلّق «الدّيسق» فوق رأسي فشعرت بالطمأنينة عندما تلاقت عيناي بعينيه، كان دومًا يظهر في كلّ مكان أنتقل إليه، فهو لا يحتاج للأَسْطُرلاب كما ظننت في بداية الأمر، هي سماء واحدة لمملكة البلاغة كلّها وهو يلاحقني حيثما كُنت.

منحني نظرة شاملة للجبل «أَمَانوس» وما حوله بعينيه، ورأيت نفسي وأنا كنملة صغيرة تتسلّق، أجفلت من هول ارتفاع الجبل وشدّة انحداره، عندما استرددت بصري قررتُ أن أهبط إلى أسفل بقعة في الجبل وأبحث عن ممراته ومغاراته السفلية، كان الجوّ باردًا فبدأت أسناني تصطك ببعضها البعض، جمعت كفيّ ونفخت فيهما لأدفئهما بأنفاسي، لمحت أطيافًا تجول حولي فأجفلت وأخرجت الخنجر الحلزوني، ووقفت متأهّبًا وألقيت السلام بصوت جهوري واثق، فردّ أحدهم السّلام بصوت مزلزل مهيب، واقترب منّي في خطوات ثقيلة ورصينة، كنت أحدّق أمامي وأنتظر أن يظهر لي صاحب تلك الخطوات والصوت المميّز!

أطلّ من وسط الضباب فإذا هو رجل عملاق عظيم الكراديس، له رأس ضخم، ووجه مربّع تثقبه عينان مخيفتان كعيني ذئب، وعنق عريض وذراعان غليظان، كان يحمل على كتفه مطرقة عظيمة لها رأس مكوّر وممتلئ بشذرات حديدية حادّة وبارزة، ضرب بها على الأرض فأحدث هزّات عنيفة فشعرت أنّها تتخللني، واهتزّ كياني كلّه، وقف أمامي واخترقني بنظراته، رفعت رأسي لأحدّثه وأنا من يطلقون عليه طويل القامة! فقلت باقتضاب:

-أنت «مَردان»؟

قال وهو يرشقني بنظرة مرتابة:

-من أنت؟ وماذا تُريد؟

-أنا مُحارب واسمي «حمزة»، أتيت بأمر من كبير حرّاس المكتبة العظمى و...

هزّ رأسه وقاطعني سائلًا:

-أيّ صقر حملك إلى المملكة؟

-«الرّمادي».

أنزل العملاق مطرقته وقال بصوت تشوبه رنّه حنين لا تتناسب مع ملامحه القاسية:

-«أبادول»!

-نعم هو جدّي الأكبر!

عاد «مَردان» يثقبني بنظراته وقال:

-ولم أنت هنا؟

وقفتُ متخبّطًا، من أين أبدأ الشرح؟ درت بعينيّ في المكان حائرًا، وإذا بصوت غريب يتردد صداه في الأجواء، اقترب هُدهُد كبير له جناحان

بديعان وأطلق صيحة عذبة ورفرف بجناحيه وهو معلّق في الهواء، كان له عُرف بنيّ اللون يُشبه التّاج، كان جناحاه محفوفين من أطرافهما بريش أسود، بينما نصف جسده أسود مرقّط بريش أبيض في نظام جميل، سقطت ريشة ذهبيةً من جناحه، التفت العملاق تجاهه وقال وعيناه تتبعان الهدهد وهو يرحل عن المكان:

-«بُرهان»!

بدا لي وكأنّه يعرفه، وأنّ تلك علامة بينهما، أو رمز لشيء ما! انصرف الهدهد فالتقط العملاق الرّيشة الذّهبية اللون، وبوجه لا يعرف الابتسامة اقترب منّي، وانحنى ليقول وعيناه المروّعتان ثابتتان على مقلتيّ:

-خُذ ريشتك، واتبعني أيّها المُحارب.

تناولتُ الرّيشة منه، وتمعنت فيها وأخذت ألمسها بأطراف أصابعي وأنا أسير خلفه، بدت لي عاديّة جدًا، فهي ليست من الذّهب كما ظننتها! لكنّها تبرق! وضعتها في حقيبتي ورفعت رأسي فوجدت المسافة التي تفصل بيني وبين العملاق كبيرة جدًا، كانت خطواته واسعة، ولم أنتبه، فانطلقت أركض لألاحقه، كانت هناك رائحة عفنة ونتنة تفوح في الأجواء كلّما تقدّمنا في السير، سألته وأنا أجتهد لأوازي خطواته:

-أين سنذهب؟

-لأُريك الأسرى الذين سلسلهم جدّك.

سألته متعجبًا:

-ألم يتحرروا؟ لقد أُخبرت أنّهم تحرروا من أسرهم ويسكنون الآن أجساد شعب «أوركا» ويسكنون وادي «الفراديس».

التفتَ العملاق نحوي ونظر إليّ نظرة غريبة، بدا لي أنّه لم يبتسم أبدًا من قبل! قال بصوته الأجشّ:

-الدّواسر هم من تحرروا، أمّا الوحوش فلا!

كنّا قد وصلنا إلى مغارات مظلمة، صعدنا إليها ودلفت خلفه لمغارة منها، وفور دلوفنا اندفع وحشٌ كاسر تجاهنا، كاد يلتهم وجهي لولا السلاسل التي تقيّده، شعرت بالقشعريرة تسري في جسدي كلّه، هربت الدماء من أطرافي، استغرقت وقتا حتى استعدت أنفاسي التي انقطعت وكدت أفقد وعيي، تماسكت ووقفت أتأمله، كانت أنيابه الحادة تبرز من بين شفتيه محمّلة بلعابه الوفير وهو يرفل ويزوم ويزأر، أدركت حينها أنّ تلك الأصوات التي تناهت إلى سمعي عندما وصلت كانت أصوات تلك الوحوش، انطلق الوحش يزأر، وارتفعت أصوات عديدة من المغارات الأخرى تناجيه وتردّ عليه، كان العملاق يقف ثابتًا ويراقبنا، قال بعد أن منحني فترة لكي أستعيد ثباتي:

-كانت «الدّواسر» تسكن في أجساد تلك الوحوش، حبسهم جدّك «أبادول» في هياكلها لسنوات، لم يُخرجهم إلّا تلك الطلاسم التي قُرئت وكانت مدونة في كتاب لِعين للسحر خطّها «ساجور»، وقامت زائرة بترديدها ففُتح ممر «أَمَانوس»، وتحرروا جميعًا من الأسر هنا.

-وكيف فعلها جدّي؟

-روّضها، وتخلّص من رائحة الخوف، تلك الوحوش تشمّ رائحة الخوف وهي تتسلل في عروقنا، أما جدّك فقد مرّ بلحظات عصيبة هنا، حتى تخلّص من خوفه، خلوته هنا وعزيمته الحديدية جعلته وحشًا كاسرًا هو الآخر، كان ينظر إليهم مباشرة في أعينهم فيتراجعون خوفًا منه، يأمرهم فيسيرون خلفه كقطيع من الغنم.

-وكيف أدخل كيانات «الدّواسر» الأثيرية فيهم؟

-هذا أصعب ما حدث يا «حمزة»!

سألته متعجبًا:

-لماذا؟

هزّ «مَردان» كتفيه وقال:

-كان يسمح لهم بتخلله والانبساط في جسده في استسلام، ثُمّ كان يخلعهم كما ينفض القميص عن جسده ويدفعهم في أفواه الوحوش التي كانت تطيعه كالأغنام، أمّا زعيمهم «غيهبان» فقد حبسه في وحش من تلك الوحوش ثُمّ ذبحه بخنجره، فمات كلاهما في الحال، زعيم «الدّواسر» والوحش الذي كان يسكنه، ثُمّ سلسل البقيّة بيديه هنا، وبعدها ألقى «المجاهيم» الطلاسم على رؤوس تلك الوحوش.

قلتُ بفخر واعتزاز:

-كان جدّي «أبادول» محاربًا رائعًا!

-بالتّأكيد، كان جدّك حكيمًا أيضًا وهو يتعامل معهم بقوّته وبأسه وبخنجره الذي اختفى فجأة، ولم نعثر عليه، يقولون إنّ هناك من أعاده إليه! ويقولون إن ابنه عاد إلى المملكة بعدها بسنوات ومعه هذا الخنجر وآخر غيره، وسمعت أنّ حفيدًا من أحفاده استخدمه أيضًا.

هززت رأسي آسفًا وقُلت له:

-إلّا أنا! لم أُحضر هذا الخنجر للأسف!

-لعلّ خنجرك هذا أنسب لمهمّتك يا «حمزة»، والآن، أنت هنا لكي تتدرب على ترويض الوحوش لكي تعيد حبس «الدّواسر» فيها.

-كيف؟

بدأ العملاق يحدّثني عن تلك الوحوش، طفنا بالزنازن معًا ورأيتهم واحدًا تلو الآخر، كان قلبي يرجف أحيانًا، وينتفض أحيانًا أخرى، وفي كلّ مرة كنت أتراجع فيها كُنت أتذكّر وجه أخي «خالد»، وأحاول تذكّر كلّ نصائح أبي وجدّي، أتثبت بما ألتمسه من كلمات كنت لا أعرف معناها ومُرادها والآن فهمتها، حتى آيات القرآن التي كنت أصلّي بها تذكّرت معانيها فوقعت من قلبي موقعًا لم تقعه من قبل! وكأنّ تلك الرّحلة إلى هنا

كان لا بدّ من حدوثها حتى أفهم، وأتذكّر وأعي كل معنى من تلك المعاني، في ذلك اليوم لم أبت ليلتي هناك، بل عُدت إلى المكتبة وصحبت السيّد «هشام» وعُدنا إلى غابة «إِلبَيْلَسَان»، التقطت جمجمة «رَيْهُقانة» من تحت الشجرة وعدنا إلى قرية «أوركا» وبتنا ليلتنا مع «سَاهور» فقد كان مريضًا للغاية، عُدت في اليومِ التالي لجبل «أمَانوس»، وتركت السيّد «هِشام» مع «سَاهور» يومًا كاملًا، بدأت أتعامل مع الوحوش وألمسها، وأُطعمها، فاعتادت على رؤيتي، كان «مَردان» يصف لي ما كان جدّي يفعله معها بالتفصيل، سألته كيف يعرف كل هذا وهل كان يلازم «أبادول» طوال الوقت؟ وكم كان عمره وقتها؟ فعاد إلى صمته الغامض كما أنّه تحدث بما يكفي وقد انتهى الأمر، وصار يتعامل معي بالإشارات والإيماءات! فلم أعد لسؤالي حتى يتوقف عن الإشارة ويعود لحديثه معي بصوته الغلِيظ الذي كنت قد اعتدت على سماعه، مرّ هذا اليوم ثقيلًا، وعُدت بالأَسْطُرلاب إلى قرية «أوركا»، كان السيّد «هشام» كثير النوم وخاصّة أنّه لا يستطيع الترحال كسابق عهده ولديه وقت فراغ طويل، بدا خاملًا ويائسًا كما لم يكن من قبل! وكان «سَاهور» قد شُفي من الحمّى وتحسّنت أحواله، لاحظت أنّه يسير بلا حذاء حديدي، وأنّه تخفف من ثيابه الثقيلة! فتعجّبت من حاله! كيف لا يطير في الهواء كما حدث عند البئر؟

وازداد تعجّبي عندما أخبرني فجأة أنّه يريد الزواج من «مُونارش» وطلب منّا أن نعيدها للقرية، لم أسأله عن سبب تغيّره، ولا عن سبب قراره المفاجئ، فهو شخص مُرهف الحسّ وشديد الحساسية، ولم أرغب في إحراجه، ورحلتُ مع السيّد «هشام» لنزفّ إلى «مُونارش» هذا الخبر السعيد وكنّا نعرف أنّها تُحبّه، وتركنا «سَاهور» وهو يُعيد ارتداء ملابسه الثقيلة وحذائه ليعود إلى قصر أمّه ويخبرها برغبته في الزواج من «مُونارش»، كان أمر عودتنا لداخل قرية «أوركا» يحتاج إلى تمهيد من «سَاهور»، فقد كان الملك «قاموس» غاضبًا منّي لأنني أخفيت «هُرهُور» عن

أعينهم، أراد أن يُساوم على حياته، ويكتب معاهدة مع حاكم «وَرَاشين» الجديد، ليضمن لشعب «أوركا» مكانة تليق بهم، وبأبنائهم الهُجناء.

تركت السيّد «هشام» في غابة «البَيْلَسَان» وعدت للجبل، وبدأ العملاق يحرر وحشًا في كلّ مرّة وهو يُمسك رأسه بخطّاف مُعلّق في عصا حديدية غليظة طويلة، كان يطلقه للحظات فأتأهّب لهجومه ثُمّ يوقفه فجأة، بدأت أقترب من تلك الوحوش أكثر فأكثر، حفظت رائحتهم، ولمست أنوفهم، وشعرت بحرارة أنفاسهم، وحفظوا رائحتي، وضعت يدي في أفواههم من الجانب بسرعة خاطفة كما علّمني «مَردان»، وأصابوني بالكثير من الجروح في ذراعي وصدري ووجهي بمخالبهم، لعقوا دمائي، وسال لعابهم على يدي.. كُنت أعود مغبّرَ الوجه ملطّخًا بالدماء وقد تحوّلت ثيابي إلى لون الطين حيث كنت أتصارع معهم وأسقطهم ويسقطونني، بدأت أستخدم خنجري وكنت أحاول التعوّد على المشاوسة والمهاجمة به، فهو سيكون أداتي لسحب الكيانات الأثيرية من سكان وادي «الفراديس» لأحبسها في أجساد تلك الوحوش، فلن أستطيع السماح لهم بتخلل جسدي كما فعل «أبادول»، لكنني سأحاول استخدامه كما استخدمه جدّي «كمال» مع ساحرات «ماذريون»، تكررت زياراتي لجبل «أَمَانوس»، ولـ«مَردان» الذي كان عالقًا في هدوءٍ بداخله رغم ما يدور حوله، لا يتحدّث إلّا بكلمات شحيحة، يحصيها من يحاوره على أصابعه، وعلى وجهه تقطيبة دائمة لا تتغيّر أبدًا، تخيّلت تلك الوحوش وهي تتصارع مع بعضها البعض، فسألت «مَردان» عن هذا بتلقائية، وددت أن يصف لي كيف يتقاتلون مع بعضهم، التفت «مَردان» تجاهي وطالعني بنظرة ثاقبة، ظننته يدعوني لكي أقترب من الوحش الذي حرره للتوّ وهو يتحكّم فيه بخطّافه، لكنني فوجئت به يُحرر وحشًا آخر منها، تأمّلت براثنه، وأصغيت للهاثه وقلبي يخفق بقوّة، بدأ «مَردان» يُحرّش الوحشين على بعضهما، وبدأ أحدهما يزمجر ويحوم، أمّا الآخر فكشّر عن أنيابه وبدأ يخرج صوتًا غليظًا من

أنفه اقشعر جسدي لسماعه، تراجعت ببطء وكانت دقّات قلبي تتواثب بين أضلعي... هل سيهاجمني الوحشان معًا؟ أم سيهاجم أحدهما الآخر أوّلًا فيقضي عليه قبل أن يلتفت تجاهي؟ ولماذا فعل «مَردان» هذا بي؟ لم أجرؤ على فتح فمي وسؤاله، فقد اعتراني الغضب لأنّه لم يخبرني أنّه سيفعل هذا الآن، وكان يقف ببرود عاقدًا ذراعيه أمام صدره وهو يراقبنا في صمت، بدأ الوحشان يتقافزان في ضجّة، كانا في حالة اهتياج ودار بينهما نِزال قاس، تدخّل «مَردان» ولطم أحدهما لطمة رهيبة على أنفه، فسالتِ الدّماء منها، ورماني بنظرة وكأنّه يُخبرني ألّا أخاف منها، عادا يتصارعان، وفاجأ «مَردان» الوحش الآخر بضربة قاسمة بمطرقته على ظهره فتحمّلها الوحش بدون زمجرة مما لفت نظري له، الآن أدركت أنّ أحدهما إكثر تحمّلًا من الآخر، وكان ذا رأس فراؤه أكثر حُمرة من ندّه، صرت أتابع حُمرته بعيني، كان يتحمّل الضربات في صمت، وكان الآخر كثير المناوشة، يخمشه من آن لآخر ببراثنه حتّى صارت ملطّخة بالدّماء، لن يكون النصر في تلك المعركة بكثرة الضربات، بل بأشدها قوّة، وأبلغها مقصدًا، وكان هذا ما يفعله الوحش ذو الحُمرة، يضرب ضربة ويقفز متراجعًا، وفي لمحة عين، كانت أسنانه الحادّة قد قطعت حنجرة الوحش الآخر، فانبثقت الدّماء من الجرح في دفعات نابضة وأغرقت الأرض تحت أقدامنا، وتسارعت دقّات قلبي، ورحت أنقل نظري بين الوحش ذي الحمرة وبين وجه «مَردان» الذي لمحت على فمه ابتسامة ساخرة، كادت الأرض تميد بي، وكأنّ هوّة انفتحت تحت أقدامي، وشعرت وكأنني ريشة تتأرجح في الهواء، حاولت جمع أطراف شجاعتي، واستعدت رباطة جأشي، لا مجال للخوف الآن، أنا وحدي أمام هذا الوحش الكاسر، و«مَردان» يتصرّف بطريقة غريبة، وقفت متأهّبًا لهجوم الوحش الذي كانت الدماء تقطر من فمه بعد أن التهم حنجرة ندّه الذي فارق الحياة منذ لحظات، وكان فراؤه ملطّخًا بالدّماء، حدّقت في عينيه اللامعتين، نسيت «مَردان»، ونسيت كلّ شيء أتيت من أجله، ونسيت مملكة البلاغة

ومن فيها، حتى أنني لم أفهم الكلمات التي كان يوجهها «مَردان» لي وكأنني أصبت بحالة من الجمود الفكريّ، سمعت فقط أنفاسه، ورأيت عينيه، وشممت رائحة الدماء المتساقطة من بين أنيابه، وقد خُيِّل إليَّ أنني أرى قلبه وهو ينبض تحت جلده، اقترب منّي فاقتربت منه، بدأ يحوم ويزمجر، فوجدتني أحوم وأزمجر مثله، كانت كلّ حركة له أثناء نزاله مع نده الفاني محفورة في ذاكرتي، قررت أن أهاجمه بطريقته، ليس المهم كثرة الضربات، إنّما الأهم أن تكون ضربات قاصمة، ثبّت قوائمه الخلفيّة فأدركت أنّه يستعدّ لوثبة فشدّدت قبضتي وفور أن وثب تجاهي لطمته بقبضة يدي على فكّه لطمة استجمعت فيها قواي قدر استطاعتي فأطحت به، لكنّه لم يمهلني وعاد وغرز مخالبه في كتفيّ فصرخت صرخة اهتزّ لها كلّ جزء في جسدي، وسقطنا على الأرض معًا، نتدحرج في عشوائية فوق الدّماء، وخلع مخالبه عن كتفيّ اللتين كانتا تؤلماني بشدّة، كاد يصل بأنيابه لحنجرتي لولا أنني ثبّت نفسي فوقه وغرزت أصابعي في عينيه ثُمّ وجهت لفكّه ضربة أخرى سمعت على أثرها صوت عظمة الفكّ وهي تقرقر، ثُمّ قبضت على عنقه بقوّة شديدة وأنا أصرخ، تصاعدت وتيرة زمجرتي وصراخي، وكنت أعصر عنقه بقوّة وأنا قابع فوق صدره، فغدا تنفّسه أبطأ من ذي قبل، وبدأت قواه تخور، ثُمّ غربت عيناه، وتوقفت أنفاسه، وأدركت أنني قد قضيت عليه، فقمت والدّماء تسيل من كتفيّ، والتفتّ تجاه «مَردان» الذي قال كلمة واحدة وباقتضاب شديد: «أحسنت»، وكُنت في غاية الغضب منه، جرّ «مَردان» جثّتي الوحشين واحدة تلو الآخرى تجاه حافّة الجبل وأطاح بهما، وعاد حيث كُنت أقف وربّت على رأسي، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي أشعر فيها أنّه يشجّعني بحقّ، عدت بالأسطرلاب لأداوي جراحي، ومرّت الليلة ثقيلة عليّ.



وقف «سَاهور» أمام أُمّه ويداه ترتجفان، لا يدري لماذا ترتجفان، لم يكن خائفًا، لكنّه ولأوّل مرّة يشعر أنّه يحتاج إلى شخصٍ آخر ليحتويه، قال وهو يقتبس ابتسامة:

-سأتزوج.

رفعت الملكة «أهاليل» عينيها تجاه وجهه وبدا وكأنّها تتوقّع هذا، تصنّعت المفاجأة وقالت له:

-يا لسعادتي...ومن العروس يا «سَاهور»؟

ثبتت عينيها على شفتيه تنتظر اسمها! فقد رأت بنفسها نظرات «مُونارش» لابنها، ولاحظت توتّره وهو يتحدّث إليها، قال «سَاهور» في ارتباك:

-«مُونارش».

-ماذا! «مُونارش»؟ لا!

قال «سَاهور» بانزعاج:

-وما العيب فيها يا أُمّاه؟ ألم يكن هذا حلمك دومًا؟ أن أتزوّج فتاة تحبّني وتعتني بي وتؤنسني؟

قالت الملكة «أهاليل» بعصبية لم تنجح في إخفائها:

-لأنّها تختلف عنّا، «الحورائيات» جنسهن غريب يا بنيّ، كما أنّ الظروف هنا ليست ملائمة لها، هؤلاء الفتيات لا يستطعن العيش خارج غابة «البَيْلَسَان»، تقول إنّها تبحث عن أهلها وستعود إلى هناك، حتّى أنّها تتناول ترياقًا لكي تبقى على قيد الحياة هنا خارج الغابة!

هزّ «سَاهور» رأسه بثقة وقال:

-سأنتقل معها إلى هناك إن لزم الأمر، وسأعيش معها في غابة «البَيْلَسَان»، فأنا أحبّها.

قالت «أهاليل» باستنكار:

-كيف تُحبّها وأنت لم ترها؟

لاحت على شفتيه ابتسامة ساخرة وقال:

-وما حاجتي لرؤيتها بعيني وقد رأيتها بقلبي!

-يا بنيّ إنّها...

-إنّها ماذا يا أُمّي؟

قالت «أهاليل» بعد صمت قصير:

-لا تُناسبك

شعر «سَاهور» بالضّيق وقال لها:

-بل تُناسبني..أشعر أنّها تنتمي إليّ، «مُونارش» تخصّني يا أُمّي!

تلعثمت «أهاليل» قائلة:

-أقصد أنها..ليست جميلة، ملامحها فيها شيء غريب، هناك الكثير من الفتيات الجميلات من شعب «أُوركا»، ولقد عُرض عليك الزواج منهّن مرّات عديدة، سعى إليك الآباء سعيًا لينلن شرف زواجك من بناتهم، وكُنت ترفض!

أشار لعينيه قائلًا:

-لستُ في حاجة للجمال الذي تتحدّثين عنه! أنا ضرير!

هزّت أُمّه رأسها وسألته:

-ما الذي أَعجبك فيها؟

ابتسم «سَاهور»، كان يتوقّع سؤالاً كهذا، سكنت ثورته وبدا أكثر هدوءًا، ثُمّ وضع يده على صدره وقال:

- عندما تُقبل أشعر بوجيف في قلبي، ذاك الوجع الخفيف الذي أستعذبه، لذّة تتخللها وخزة خفيفة هنا في صدري يا أمّي..شعور جميل!

ثُمّ أردف وقد تهلل وجهه:

-«مُونارش» لطيفة، أُحبّ سماع صوتها وهي تتحدّث وتُثرثر، خطواتها الرقيقة وهي تسير بجواري تجعلني أشعر وكأنني أطير معها في رحاب عالم خاص.

أشار بيده لطولٍ معيّن وقال:

-أظنّها تبلغ هذا الطول، فصوتها لا يرتفع عن هذا القدر، رأسها الصغير يوازي قلبي.

ثُمّ اقترب من أُمّه وقال:

-صوتها وهي تُحدثك فيه احترام، وصوتها وهي تُحدّثني فيه خجل، وصوتها وهي تتحدث إلى «مُورفُو» فيه حبّ، وصوتها وهي تتحدّث لـ«هُرهُور» فيه براءة وعفوية، وصوتها وهي تتحدّث عن حياتها فيه دفء جميل، وصوتها وهي تتحدّث عن الحبّ فيه شغف!

قالت أُمّه بصوت رتيب:

-تزوّج من عشيرتنا يا ولدي، تزوّج فتاة تُشبهنا..

تراجع خطوة وقال وهو يقبض على عصاه بقوّة:

-تُكررين معها ما حدث معك من عمّي! وستؤلمينها كما تألّمتِ يا أُمّي!

فغرت الملكة «أهاليل» فاها، ووقفت واجمة، كانت جملته كلطمة على وجهها، طأطأت رأسها وران عليها صمت ثقيل، نعم، هي الآن تتحدث

كعمّه «عدنان» تمامًا، وتتحدث كما تحدّث أبوها الملك «قاموس» عندما أراد أخوها الزواج من فتاة من مدينة «وَرَاشين»، أدرك «سَاهور» ما يعتمل في صدر أمّه فأسرع ووضع يده على كتفها وهو يقول بصوت متهدّج:

-يقولون يا أُمّي إنّ الإنسان يقع في حبّ من يراه بعيني قلبه، ومن يجعله يُحبّ نفسه، وهي جعلتني أحبّ نفسي، وجعلتني أحبّها، وأحبّ أهلي وقريتي وعشيرتي أكثر، روحها التي لا تُشبه أرواح الأخريات تتخلل جوارحي، ضحكتها العفوية بصوتها الحاد والغريب أضحكتني، حتّى سكوتها اللطيف أستعذبه، أتدرين يا أمّاه؟ همس أنفاسها يلملم شتات نفسي المبعثرة، كلّ مرّة ألقاها أشعر أنني وُلدت من جديد، أنسى كلّ مرارة ذُقتها في حياتي، تتلاشى آلامي، وأكون طفلًا حتّى تنصرف.

عانق «سَاهور» أُمّه، فأخذت تمسح على ظهره بحنان، نسيت أنّها مرّت بما تمرّ به «مُونارش» الآن، دمعت عيناها، ورقّت له، وباركت رغبته في الزواج من «مُونارش».

وقفت «مُونارش» تتخبّط في ارتباك، فهي تتمنّى الزّواج من «سَاهور»، لكنّها خائفة!، قالت وهي تفرك كفّيها بتوتّر:

-أنا ضعيفة ورفيعة جدًا يا «سَاهور»، وقصيرة وأنت طويل، عيناي ضيّقتان، وفمي واسع، وأسناني دقيقة، وأنفي...

-لكنني أُحبّك..أقصد أنني بعد زواجنا سوف أُحبّك..أَقصد أنني أحبّ كلّ ما فيك يا «مُونارش».

قالت بصوت مخنوق:

-لكنني قبيحة!

-بل جميلة.

احمرّ وجهه، وغَمرت حُمرة الخجل خدّيها، أنصت لصوت أنفاسها فأدرك ارتباكها فقال ليُهدئها:

-كُفّي عن الانتقاص من قدر نفسك يا «مُونارش»!

-رأيتك وأنت ترتقي في الهواء وتطير وتحمل «حمزة» لتُنقذه من بئر «درِّواس»، أنت أكثر مني صفاء يا «سَاهور»، أنت رقيق الحاشية وتَستحقّ من هي أفضل مني!

خلع «سَاهور» حذاءه، وقميصه، وألقى الحجرين المربوطين حول جذعه، ووقف حافي القدمين على الأرض أمامها، لم يرتقِ في الهواء، رفع يديه وهزّ كتفيه غير مُكترثٍ وقال:

-ذاك حالٌ لا يدوم، أنا مثلكم جميعًا، تارة أُذنب وتثقل روحي، وتارة أندم وأستغفر فتشف روحي وترقى، وددت لو اختفت تلك الميزة، فهي تفضح حالي.

هزّت «مُونارش» رأسها بثقةٍ وقالت:

-كونها تلازمك يعني أنّ صفاء نفسك ونقاء سريرتك يغلب على جانبك المظلم الآخر، أمّا أنا....

أعاد «سَاهور» ارتداء حذائه الحديدي وربط الحجرين وارتدى قميصه وقال:

-أرأيت؟ يضطرّني هذا لارتداء تلك الملابس وربط هذين الحجرين على الدّوام، فاستعدّي يا زوجتي المستقبلية، فأنتِ ستتحملين هذا معي.

أربكتها الكلمة، «زوجتي»!! وقفت ترتجف أمامه، مرّ «حمزة» بجوارهما وكان يعلم أنّ «سَاهور» يحدّثها في أمر زواجهما، فقالت له:

-أخبره أنني لا أُناسبه يا «حمزة»، فهو يستحقّ من هي أفضل منّي.

عقد «حمزة» حاجبيه وقال بحزم:

-كفّي عن ترديد هذه الخُزعبلات يا «مُونارش»، هو يرغب بالزواج منك، وأنتِ أيضًا، فلم تضعين العراقيل الآن؟

كان «الدّيسق» يُحلّق فوقهما، لمعت عيناها فقالت وهي تثب من فرط الانفعال:

-«حمزة»، هل من الممكن أن يراني «سَاهور» بعيني «الدّيسق» ولو لمرّة واحدة؟

فغر «حمزة» فاه، فالفكرة لم تَخطر بباله، قال وهو يحدّق تجاه «الدّيسق»:

-لا أدري! لم تخطر ببالي الفكرة رغم أنني أعرف عن «الشهباء» والملكة «الحوراء»!

قال «سَاهور»:

-لا حاجة لي، رأيتُك بقلبي مرّات ومرّات يا «مُونارش».

قالت «مُونارش» برجاء:

-أرجوك يا «سَاهور»، فلنجرّب!

رفع «حمزة» عينيه تجاه «الدّيسق»، كان قد بدأ يشعر أنّ هناك رابطًا حسيًّا ينمو ويتعملق بينه وبين هذا الطائر الغريب، إنّه يشعر به وكأنّه يقرأ أفكاره، رفع «حمزة» ذراعه فأقبل «الدّيسق» ووقف على ظهر كفّه، سار «حمزة» مقتربًا من «سَاهور» وقال له:

-فلنجرب يا «سَاهور»

كرر «سَاهور» كلماته بإصرار:

-لا حاجة لي لفعل هذا يا «حمزة».

ألحّت «مُونارش» عليه قائلة:

-أرجوك يا «سَاهور»...أرجوك.

وقف «سَاهور» مستسلمًا بعد إلحاحهما، ووقفت «مُونارش» أمامه، ووضع «حمزة» «الدّيسق» على رأسه برفق، انتفض «الدّيسق» وبسط جناحيه، ثُمّ غطّى رأس «سَاهور»، مرّت لحظات قصيرة، ثُمّ لملم جناحيه برفق، وانتقل إلى كتفه «سَاهور»، فأضاءت عينا «سَاهور» الرّائقتان، ورآها أمام عينيه، قال وهو يختلج:

-أراكِ...أراكِ يا «مُونارش»! أنا أرى بعينيّ هاتين.

رفع يده وتحسس عينيه، قال «حمزة» بثقة:

-أخبرتني الملكة «الحوراء» أنّ الأمر غريب، وأنّك سترى بعينك أنت وليس بعيني «الدّيسق»، وكأنّه يهديك بصره وينقله لك، تستطيع رؤيته إن أدرت رأسك يا «سَاهور»

أدار «سَاهور» رأسه ورأى «الدّيسق»، مسح على رأسه بلطف، وعاد يتأمّل «مُونارش»، غمرت ابتسامة واسعة وجهه فازداد وسامة، كانت مُونارش» تضحك بانفعال كطفلة صغيرة وهو يقول:

-عيناك البندقيتان جميلتان، ضيّقتان كما تقولين لكنني أرى نفسي فيهما، وأنفك رقيق ولطيف، لا يبدو فمك كبيرًا كما وصفته! وأرى أسنانك مصفوفة كحبّات اللؤلؤ يا «مُونارش»، ابتسامتكِ رائعة، وأنتِ جميلة، لكنّك...

أجفلت وسألته بارتباك:

-لكنني ماذا؟

قال ضاحكًا:

-قصيرة جدًا.

ضحك الثلاثة وكانت «مُورفو» تراقبهم من بعيد وتضحك لضحكهم، قال «سَاهور» وهو يتمعّن في وجه «حمزة»:

-كما تخيّلتك، طويل القامة وقويّ البنية، وملامحك محببة للقلب، لقد سكنت الفؤاد يا صاح!

ثُمّ أشار تجاه «مُورفو» وقال:

-هذه «مُورفُو»، أليس كذلك؟

-بلى

أشارت إليه «مُورفو» كانت تكتفي بمتابعتهم دون أن تقترب، انطلق «الدّيسق» محلقًا بعيدًا عن «سَاهور» ووقف فوق رأس «حمزة»، وكأنّه كان يؤدي مهمّة وقتية فقط، انطفأت عينا «سَاهور»، طاف بقلبه حزن خفيف، ودّ لو رأى أمّه وأخاه «سِنمّار» فقد اشتاق لوجهيهما، لكنّه وضع يده على صدره سريعًا وقال بعفوية:

-يكفيني هذا القبس يا «مُونارش»، وها قد رأيتُك، والآن...تزوجيني!

قال كلمته وكأنّه يأمرها، وبأمر الحبّ استجابت صاحبة الفؤاد المتيّم...

في تلك اللحظة استيقظ السيّد «هشام» من غفوته وخرج من معبد «سَاهور» المتواضع، وهو يتثاءب ويمدّ ذراعيه ويتمطّع كالقطّ الكسول، ضحك «حمزة» عندما رآه، وأقبل عليه يُمازحه، بينما عاد «سَاهور» لصمته ليحصي أنفاس «مُونارش» وهي تسير بالقرب منه، من بعيد كانت «مُورفو» صامتة وعيناها تبرقان، وأخيرًا عثرت رفيقتها على الحبّ، فماذا ستفعل هي الآن؟



22

السّيف المقلوب

طرقة خفيفة على الرّأس، ودوار خفيف ثُمّ شعور بعدم الاتزان والهبوط يتكرر في كلّ مرّة ينقل فيها «الدّيسق» تلك المشاهد الحيّة لـ«حمزة»، هذه المرّة كان «الدَّيسق» ينقل لـ«حمزة» مشهد مبارزة «خلدون» و«فِراس» لبعضهما بالسيوف، كانا فِي أوج غضبهما، وكانا يتبارزان أمام كبار الحرّاس وفي غياب شقيقهما «أَشْهَم» في ميدان من ميادين القصر، كان «فِراس» يقول لأخيه «خلدون» وهو يختلج غضبًا:

-اضرب أيّها المهين.

بحث «خلدون» عن ردّ لاذع لإهانته، لكنّ حزنه على اختفاء ولده غلبه فقال:

-سأقتلك يا «فِراس» إن لم تفصح عن مكان ولدي.

صاح «فِراس»:

-وزوجتي؟ أين «سُندس» الآن؟ خسارتي أكثر فداحة من خسارتك.

قال «خلدون» ووجهه مضرج بحمرة الغضب:

-سيفوز «أَشهم» بكلّ شيء..وسنتحول إلى خنزيرين يربيهما بالقصر.

اشتبكت يداهما بالسيفين واقتربا بوجهيهما فزفر «فِراس» بحنق في وجه أخيه وقال:

- نحن في صراع المكسب فيه ليس مناصفة، لا يوجد تساوٍ بيننا، ولا مجال للتعادل، سنتقاتل، حتى نحسم الأمر، إمّا أنا أو «أَشْهَم»...أمّا أنت فهالك لا محالة.

دفعه «خلدون» بقوّة فسقط كلاهما على الأرض وهما يلهثان، قال «خلدون» وحاجباه يرتعشان:

-زوجتك الحمقاء دفعت لعرّافة لتقتل ابني.

قال «فِراس» وهو ينهض واقفًا:

-بل فعلتها«مَثابة» زوجة «أَشْهَم»، «سُندس» بريئة أيّها الأحمق.

قال «خلدون» وهو يرفع سيفه مرّة أخرى:

-لن تنطلي علي تلك الأُكذوبة، «مَثابة» لا تُحسن قتل عصفور، وكلّنا نعلم من خرجت من القصر وذهب إلى بيت السّاحرة مع وصيفتها، ونعلم أيضًا من وضع السمّ لأبي في الماء لقتله

انخرطا في مبارزتهما لبعضهما وأرهق كلّ منهما الآخر حتى صارا يتهاديان ويتمايلان، وكلّ منهما يتصبب عرقًا، يضرب ضربة بسيفه على سيف شقيقه ويتراجع، قال أحد قادة الحرس وكان يتابعهما مع رفاقه:

-يكفي هذا وليهدأ كلّ منكما وينحي سيفه جانبًا.

قال آخر بخبث شديد:

-قفا معًا كيد واحدة أمام «أَشْهَم»، فهو الخصم الحقيقي لكما، بسبب زيجته الحمقاء سيأتي هجين ليرث العرش بعده، أتصدّقون أنّ «هُرهُور» هذا قد يأتي يوم ويكون حاكمًا لـ«وَرَاشين»؟

توقف الأميران عن المبارزة وتبادلا النظرات في صمت، خرج «فِراس» أولًا وهو ينتفض غيظًا وتبعه المقربون منه، وبقي «خلدون» مع مستشاريه، سألهم بصوت واهن:

-هل هناك أخبار عن «هُرهُور»؟

-لا يا سيدي.

هزّ كتفيه بتشنّج وقال:

-اعثروا عليه، أشعر أنّ هناك يدًا خفيّة تعبث بالقصر.

قال أحد المستشارين:

-ربّما «أَشْهَم» و زوجته هما من اختطفا ابنك يا مولاي

حدّق «خلدون» في وجهه، وصاح والرذاذ يتناثر من فمه:

- ألقوها فورًا في بئر «دِرْواس»

خرج حرّاس «خلدون» ليحضروا «مَثابة» من جناحها المحفوف بالحرس، ليلقوها في بئر «دِرْواس».

عاد لـ«حمزة» بصره، كان يراهم لكنّه لا يسمع كلماتهم، أدرك أن الخلاف بينهم تصاعد وازداد، مرّ جزء يسير من النهار فعاد «الدّيسق» لينقل إليه مشهد «مَثابة» وهم يجرّونها نحو بئر «دِرْواس»، فوثب في مكانه وقال للسيّد «هِشام»:

-سيلقونها في بئر «دِرْواس»، وزوجها لا يعلم بنيّتهم

-من هي؟

-«مَثابة»! لا بدّ أن نذهب في الحال لإنقاذها

أحضر «حمزة» الأَسْطُرلاب والخريطة، وانتقل إلى مدينة «وَرَاشِين»، وكان الحرّاس يسيرون وهم يقبضون على «مَثابة» ليلقوها في بئر «دِرْواس»، اعترضت بنات الحدّاد طريقهم، وقفن بثبات وكلّ منهن تحمل سلاحها دفاعًا عن الأميرة التي لطالما قدمّت إليهن ولغيرهن العون، عرقلوهم وانضم إليهن البعض، وهاجت طيور «الوراشين» وأصدرت ضجيجًا أخاف أهل المدينة..

حملها «الحرّاس» وألقوها بالبئر رغم تلك المقاومة، وقتئذ وصل «حمزة»، وانطلق صوب البئر، ووثب فيه مجاورًا لـ«مَثابة»، اجتمع أهل «وَرَاشِين» ليشاهدوا الوحش وهو يلتهمهما، بدأ الحرّاس يرفعون الباب

الحديدي، قامت بنات الحدّاد ومعهن العديد من شباب مدينة «وَرَاشين» المخلصين للأميرة «مَثابة» صاحبة اليد البيضاء عليهم بِحماية السيّد «هشام» وهو ينزل حبلا ليخرج «مَثابة» من البئر، وصل «أَشْهَم» في تلك اللحظة وعاونه ليخرجاها بسلام، وبقي «حمزة» متأهّبًا بخنجره داخل البئر، أعاد «أَشْهم» الحبل وناداه ليخرج، لكنّه رفض هذه المرّة، قرر أن يقتل هذا الوحش، لتنتهي أسطورة البئر، ما عاد يرتجف من صوت زئيره، كانت زياراته للجبل سببًا في ثباته، رفع عينيه لأعلى وصاح بجسارة قائلاً:

-ارفعوا الباب.

لم يستجب الحراس لأمره، فانطلق أهل «وَرَاشين» المتحمّسين لزوال أسطورة هذا الوحش لأوّل مرّة ورفعوا الباب بأنفسهم، ووقف «حمزة» متأهّبًا أمام الوحش وهو يتقدّم منه ويزأر، ما عاد يخافه، كان ينظر في عينيه مباشرة، والعرق في جبينه ينبض، حدّث نفسه بأنها لحظة فارقة في رحلته تلك، إمّا أن يتغلّب عليه، أو...يتغلّب عليه! لا خيار ثانٍ سوى القضاء عليه!

وثب الوحش فانقض عليه «حمزة» وغرز الخنجر في فكّه من الأسفل، فهبط الوحش متألّما فوق «حمزة»، فغرز أصبعيه في عينيه وهو يسحب الخنجر، وأزاحه عن جسده وهوِ يزوم ثُمّ ضربه بكلتا يديه على رأسه، تذكّر كيف أخبره «مَردَان» عن «أبَادول» عندما كان يمسك بفكيّ الوحش وهو يهاجمه، فأمسك بفكّيه وأبعدهما عن بعضهما حتى جرحت يداه وسالت الدماء من بين أصابعه وهو يفعلها، أخرج المسحوق الذي أعطاه له كبير الأطباء ونفخ بعضه في عيني الوحش فأغلقهما وانزوى يحكّهما بمخالبه، صرخ «حمزة» مناديًا على الحرّاس ليفتحوا باب السرداب المؤدي لهذا البئر، فهرول شباب «وَرَاشين» في حماس يسابقون الحرّاس كما لم يحدث من قبل! وفتحوا الباب ليتسرب ضوء الشمس ويضيء الممر الزّنخ الرّائحة الذي طالما جرّ هذا الوحش جثث المظلومين والمقهورين

فيه، كان «حمزة» يجرّه جرًّا من طوق حديدي كان مثبّتًا حول عنقه منذ سنوات، سارا فوق الهياكل العظمية فأحدثت طقطقة وخشخشة وهي تتحطم تحت قدميهما، كان الوحش يسير متخبّطًا وهو لا يرى بعينيه، استجاب لصوت «حمزة» وتبعه أينما يوجهه، بقيت بوابة حديدية أخرى في آخر الممر، رفض الحرّاس فتحها فانقض عليهم شباب «وَرَاشين» ونجحوا في التغلّب عليهم وفُتح الباب، كان السيّد «هشام» لا يعرف سبب عدم قتله للوحش فسأله وهو يسير به ويداه ملطختانِ بالدّماء:

-أين تذهب به؟

رفع «حمزة» صوته وسأل أهل «وَرَاشين»:

-أين بيت الساحرة؟

لم يُجبه أحد، كانوا يخشونها، لكنّ طيور الوراشين أجابته، أقبلوا في صفوف، وحلّقوا بنظام، فأدرك «حمزة» أنّهم يدلّونه على بيتها، سار خلف الطيور تباعًا في مشهد مهيب وهو يجرّ الوحش الذي أرهقه لضخامة جثّته وصعوبة سيره وهو لا يرى بينما جرح فكه يؤلمه، توقفت طيور الوَرَاشين أمام بيت السّاحرة، فضرب «حمزة» الباب بقدمه، ودلف وهو يثقب عينيها الجاحظتين بعينيه الواثقتين، جرّ الوحش معه إلى الدّاخل بينما بدأت تردد طلاسمها الغريبة، فأخرج قارورة المسحوق الحارق وأفرغه بالكامل على رأسها فصارت تصرخ وتضرب رأسها بيديها وهي تصدر خوارًا مخيفًا، استلّ خنجره الحلزوني ووجهه نحو صدرها فخرج من جسدها طيفان مذبذبان بلونين مختلفين، رفع يده بالخنجر لأعلى أمام من يراقبونه بعيون يملؤها الهلع، استطاع لأوّل مرّة أن يسحب كيانًا أثيريًّا من كيان آخر قد احتلّه، بل كيانين أثيريين لساحرتين من ساحرات «ماذريون»، شهقت السّاحرة وسقطت على الأرض، فاستدار «حمزة» بذراعه وهو يشعر بثقله الشديد، ومدّ يده في جرح الوحش الذي لم تتوقف دماؤه ففتح الوحش فمه من الألم، وجّه «حمزة» الخنجر

نحو فم الوحش فاندفع الكيانان الأثيريان ودارا في مسارين إهليجيين ليدلفا في جسد الوحش القميء، وفور أن توقف المساران المضيئان الملوّنان، وحين أدرك «حمزة» أنّ السّاحرتين الآن محبسوتان في جسد هذا الوحش، مرر نصل خنجره الحادّ على عنق الوحش وذبحه، فسالت دماء الوحش على أرض بيت السّاحرة، صاح أهل «وَرَاشين» مهللين في حماس، وتكاثفت طيور الوراشين على الباب ودلفت في أفواج وتراصّوا فوق جثّة الوحش وعكفوا عليها وظلّوا ينبشونِ رأسه بمناقيرهم.

خرج «حمزة» من بيت السّاحرة ليقف أمام «أَشْهَم» ووجهه ملطخ بالدماء، وقال له بثبات:

-عدني ألّا يُقتل بريءٌ في مملكتك بعد اليوم.

تردد «أَشْهَم» قبل أن يُجيبه قائلًا:

-لكنني لا أُريد هذا الملك!

تجمهر أهل «وَرَاشين» وحملوا «أَشْهَم» فوق أكتافهم، وهتفوا باسمه، ثار أهل القصر، وأقبل «خلدون» و«فِراس» ومعهما المزيد من حرّاسهما، صرخ «خلدون» وهو يحتمي بحرّاسه:

-أنا الملك، وهذا حقّي.

قال «فِراس» بعصبية شديدة:

-«أَشْهَم»..أنت لا ترغب في هذا الأمر، وتعلم أنّ «خلدون» لا يصلح له، فليكن التاج لي، من أجل «وَرَاشين»!

ألقى الصمت رداءه على المدينة، انتظروا جميعًا ليتحدّث «أَشْهم»، قال أخيرًا وبصوت مرتعش:

-لم أر ابني «هُرهُور».

ثُمّ أردف وهو يكفكف دمعة سالت من عينيه:

-لم تفكرا في أُمّكما للحظة واحدة!
ثُمّ تغيّرت ملامحه وكان يختلج وهو يقول:
-ووضَع أحدكما السمّ لأبي ليقتله!
صاح النّاس يسألونه:
-من منهما؟ من فعلها؟ من؟
تعالت الأصوات تسأله عن الأمير الذي وضع السمّ للملك «عدنان»، ولم يُفصح «أَشْهَم» عن اسمه، قال بتأثّر:
-أكثر الخيانات ألمًا هي خيانة الأصدقاء، فما بالكم بخيانة الابن لأبيه!
طأطأ «أَشْهَم» رأسه في حزن بليغ، تقدّم «حمزة» ورفع صوته موجهًا كلماته لـ«خلدون» و«فِراس» وقال:
-أحدكما قتل أباه..تماما كما قتل هو أخاه من قبل!
أشارت كُبرى بنات الحدّاد لـ«فِراس» وهي تلوّح بمطرقتها التي لا تغادر يدها وقالت:
-زوجتك «سُندس» أرادت قتل ابن أخيك وذهبت لتلك السّاحرة المأفونة لتستعين بسحرها، اكتشفنا هذا ونحن نحقق بعد اتهامكم للأميرة «مَثابة».
واستدارت لتواجه «خلدون» وقالت له:
-وزوجتك «ميلاء» استأجرت قاتلًا محترفًا لقتل «سُندس»، كاد يشق بطنها بخنجره، لولا أننا رأيناه ونحن نتسلل للبحث عن الأميرة «مَثابة»، فاستجوبناه قبل أن نحطّم رأسه، كنّا في شرفة جناحها، وأنقذنا «سُندس» من بين يديه
صاح «فِراس» في تنمّر:
-أين هي؟

قالت صغرى بنات الحدّاد وحاجباها الغليظان يرتفعان في زهو:

-في مكان آمن.

أضافت شقيقتها المصارعة وهي تبتسم ساخرة:

-وإليك المفاجأة!.. لقد أنجبت «سُندس» فتاة جميلة تشبه أُمّها.

انطلق أهل المدينة يضحكون، قال «حمزة»:

-لا بدّ أن تُلغى تلك القوانين، الحكم لمن يستحقّه، وليس لمن ينجب الذّكور!

كان «فِراس» يقف متخشّبًا وطائر متربّص من طيور الوراشين يقف على رأسه، تراجع «حمزة» ونظر إلى «خلدون» و«فِراس» معًا وقال:

-وأنتما تبحثان عن «هُرهُور» لتهددا «أَشْهَم» بحياة ولده، وتُساومانه ليتنازل، رغم أنّه أخبركما أنّه لا يُريد التاج والملك والحكم، وتحاولان قتل زوجته «مَثابة» انتقامًا منّه!

وصلت «مَيلاء» مع كوكبة من حرّاس زوجها المخلصين له وكانت غاضبة، ثار الحرّاس فجأة وتعالت أصواتهم وقاموا بشنّ هجمة على «أشهم» ومن معه، وبدأوا يضربون بالسيوف، تسللت «ميلاء» وطعنت «فِراس»، غرزت خنجرًا في قلبه وصرخت مقهورة وهي تراقب دماءه وهي تنزف وقالت:

-قتل ولدي...قتل ولدي..

لفظ «فِراس» أنفاسه الأخيرة وهو يحدّق في وجهها، كانت «مَيلاء» قد تيقنت من قتل «فِراس» لابنها بعد اختفاء زوجته «سُندس»، بعد أن تعملقت شكوكه تجاهها وأنّها هي من تسببت في اختفاء الأخيرة، كما ظنّت «مَيلاء» أن القاتل المأجور نجح في قتل «سُندس» كما خططت من قبل، وقام بإخفاء جثّتها..

كان «خلدون» يتربّص بأخيه «أَشهم»، أسرع ليستغلّ الفرصة لتكون له الغلبة ويحمي زوجته، استلّ سيفًا وانطلق نحوه ليقتله، فانقضّت طيور الوراشين عليه من كلّ حدب وصوب، ألقى سيفه ووقف مشلولاً، تراجع النّاس، وخلت الأرض حوله، فاقترب «حمزة» برفق، كان يسير بخطوات هادئة، مدّ يده نحو الطيور، وبدأ يلمسها بأصابعه، وقف بعضها على يده فحدّثها قائلًا:

-كنتم هناك يوم مقتل الشّيخ «رَجْوان»، حاولتم منعه من الخروج، لكنّه رفض البقاء، ورفض الملك، وشهدّتم ما حدث بأعينكم

ثّم أردف قائلًا للطيور:

-وكُنتم تعلمون أنّ «هُرهُور» في قرية «كُروسكُو»، وحجزتموه هناك مع أهلها حماية له، حتى يستعيد أبوه رباطة جأشه ويفيق من حالة القنوط التي لازمته لسنوات حتى أنّه أهمل زوجته المخلصة «مَثابة»

ثُمّ التفت «حمزة» لـ«مَثابة»، وسكت هنيهة وأضاف:

-كنتم تعلمون أنّه في حالته التي مرّ بها لن يستطيع حمايته، وأنّ عمّيّ «هُرهُور» سيقتلانه، وربّما كان الملك «عدنان» سيأمر بقتله بنفسه حتى لا يصل عرق «أُوركا» بأيّ طريقة لحكم مدينة «وَرَاشين»

انطلقت الطيور في نظام وبدأت تبتعد عن «خلدون» وأقبلت على «حمزة»، وصارت تتبع يده، لو رفعها ترتفع، ولو خفضها تنخفض معه، سار «حمزة» نحو «أَشْهَم» واقترب منه، وقال بصوت جهوري محدّثًا طيور الوراشين ليُسمع أهل المدينة كلّهم:

- هذه مدينتكم، فقوموا بحمايتها، وظللوا على ملككم الذي ترتضونه

انطلقت طيور الوراشين نحو «أَشْهَم»، وظللوه بأجنحتهم، ثُمّ قاموا بالوقوف على رأسه وكتفيه، وصنعوا حلقة حوله فوق الأرض، قال «حمزة» لـ «أَشْهَم»:

-هكذا فعلوا مع الشيخ «رَجْوان» منذ سنوات، لكنّه خرج من المدينة وتخلّى عن أهلها وعنهم، فلم يتمكّنوا من حمايته من غدر أخيه «عدنان»، لا تخرج من مدينة «وَرَاشين» يا «أَشْهَم»، فهؤلاء خلفك، اختاروك بأنفسهم، وبذلوا جهدهم لرعاية ولدك، والآن يحمونك!

ارتجّ بدن «خلدون»، كانت هناك بعض الطيور لا تزال تقف على رأسه، أحسّ بالقشعريرة تزحف عبر عموده الفقري، بدأ الهتاف يعلو، وكان أهل المدينة في حالة من الانتشاء والسعادة، فبعد أن تخلّصوا من العقاب الذي كان يخيفهم دومًا تحرروا من بعض خوفهم بعد هلاك وحش «درْواس»، الذي أفزعهم به هذا الملك الظّالم الذي قتله أحدهم بالسمّ، وقد يكون ولده، والآن صار هناك صوتٌ يُسمع له، كان «حمزة» يحفّزهم بكلماته، وكانت بنات الحدّاد يطفن حوله ويصحن مع نساء «وَرَاشين» مطالبات بملك عادل لينصفهن، وليرد إليهن كرامتهن التي انتهكت لسنوات طويلة، ازداد توافد أهل المدينة، وأخيرًا قبل «أَشْهم» أن يتوّلّى الحكم، تمّ إلقاء القبض على «ميلاء» لقتلها لـ«فراس» أمام الجميع، تميّز «خلدون» غيظًا وأخذ يسبّ أخاه «أَشْهَم» ويلعنه، لأنّه لم يستجب لطلبه ورفض إطلاق سراحها، وكان «أَشْهَم» حزينًا لفقد أخيه «فراس»... غاضبًا من «خلدون»، ما زال يحتاج دليلًا قاطعًا على أنّ «خلدون» هو من قام بتسميم والدهما، وكان ينتظر هذا الدليل ويترقّب اللحظة المناسبة ليواجهه. لزم «خلدون» جناحه وكان في حالة تخبّط شديد.

خضعت مدينة «وَرَاشين» للكثير من النّشاط، هناك موجة من التغيّرات ترزح المدينة تحت وطأتها، الشّعب في حالة ذهول من الأحداث المتسارعة الأخيرة..

طلب «أَشْهَم» برجاء من «حمزة» أن يُسرع بإحضار «هُرهُور» ليراه، فليس هناك داع للخوف بعد الآن، اجتمع أهل الثقة من مستشاري «أَشْهَم» وانضم إليهم الشيوخ، وبعض المخلصين والعقلاء ممن أسكتهم

الملك «عدنان» لسنوات بتهديده ووعيده، وتم تشكيل ديوان جديد، وعاد «هُرهُور» من غابة «البَيْلَسَان» حيث استخدم «حمزة» الأَسْطُرلاب ليعيده، بكى «أَشْهم» بكاءً شديدًا عندما رآه، فقد كان «هُرهُور» نسخة من أمّه، تمت مراسم التتويج بشكل درامي حيث خيّم الحزن على «أَشهم» الذي حزن لقتل أخيه «فراس» رغم ما عاناه منه في الفترة الأخيرة، تمّ تنصيب «أَشْهَم» ملكًا لـ«وَرَاشين»، قام الملك «أَشْهَم» بقلب سيفه، وغرزه بقوّة في أرض القصر، لينهي الصراع على السلطة للأبد، ودعا للمآخاة بين الشّعبين، شعب «وَرَاشين»، وشعب «أُوركا»، ووقف بقامته الطويلة والتّاج يتألّق على رأسه، والهواء يضرب بطرف وشاحه، والسّيف المقلوب يبرق أمامه كاللجين، وبسط ذراعيه وهو يتحدّث إلى الحضور، فبدا وكأنّه طائر بجناحين، وكانت «مَثابة» تقف على يمينه، بينما كان «هُرهُور» يقف على يساره، تذكّر «حمزة» الرّمز الذي رسمته «مِسكة» في نهاية رسالتها، جناحان بديعان منقوشان بنقشين مختلفين ويفصل بينهما سيف بديع مقلوب، أخرج الرّسالة من حقيبته وتأمّل الشّعار الذي رسمته بقلمها الرّصاص، وابتسم وهو يتخيّل وجهها الطيّب الملامح، كان هو نفس الرّمز المنقوش على القلادة، ونفس الرّمز الذي يراه الآن حيًّا أمام عينيه، أعاد «حمزة» الرّسالة إلى حقيبته، ووقف يتفكّر، هل «خالد» بين الأمراء الثلاثة أم لا؟

قرر أن يبذل المزيد من الجهد ليتحقق من هذا الأمر، ما زال موت أيّ شخصيّة لشاب هنا يهزّ أركانه! ذاب السؤال في عتمة أفكاره، وانتشلته ابتسامة «هُرهُور» وهو يقف مطمئنًا بين «أشهم» و«مَثابة»، وكانت نظراتهما لبعضهما تقطر حبًا، شعر «حمزة» بكتاب «أوري» وهو يهتزّ، فأخرجه من حقيبته ليتفحّص جملته الجديدة التي نُقشت على الصفحة البيضاء أمام عينيه:

«للحبّ جناحان، فهو شراكة لقلبين، وعندما يُبسطان ويقبضان معًا يتزامن الخفقان، والوجيف، والرّجيف، والشوق، فتحلّق الروحان معًا بانسجام، وتبدأ عصافير الحبّ بالشقشقة بين الحنايا والضلوع».

مرّت السّاعات الأُولى صعبة، فقد كان «أَشْهَم» في اجتماعات متواصلة مع مستشاريه، ينظّم أُموره، ويُصدر قرارات سريعة، دلف أخيرًا لغرفة زوجته «مَثابة» وقبّل رأسها ثُمّ عانقها وقال بتأثّر:

-سامحيني يا «مَثابة»

سكنت «مَثابة» في حضنه للحظات ثُمّ قالت بانكسار:

-ظننتك لا تُحبّني و...

قاطعها «أشهم» واضعًا يده بلطف على فمها وقال:

-بل أحببتك يا مليكتي، لكنّ جرح قلبي المتعب حجبني عنك، وحرمني من وصالك.

قالت «مَثابة» بخفوت وقلبها يهوي:

-أعلم أنّك كُنت تُحبّ «رَسيل»، وأنّ لها مكانتها التي لن أُنازعها فيها، وأنّها أوّل فرحتك، وأوّل دقّة لقلبك، لكنني أنا أيضًا أُحبّك، لا أطلب إلّا غرفة من غرفات قلبك الطيّب لأسكنها.

طبع قبلة على جبينها الزّاكي وقال وهو يتأمّل عينيها الرّائقتين:

-بل كلّ غرفاته يا «مَثابة»، كُنت أحتاج لصفعة لكي أفيق وأُدرك أنّك غالية، وكان ما فعله «خلدون» و«ميلاء» بك بمثابة تلك الصفعة التي اهتزّ لها كياني وارتج لها وجداني

سالت دمعة من عينيها فالتقطها بيده وقال بحنوّ بليغ:

-عندما حُبستُ بأمر من «خلدون» في غُرفتي الخاصّة مرّت بذاكرتي كلّ اللحظات التي كُنّا فيها وحيدين، كلّ ارتعاشة ليديك الدافئتين بين يديّ الباردتين، كلّ نظرة عشق منك كُنت أتجاهلها عن عمدٍ لكي أهرب من الحبّ، كل إقبال نبيل منك واهتمام آسر استقبلته ببرود وجفاء لكي أُسكتك، كُنت أخشى حبّك الفيّاض، وأشعر أنني لا أستحقّه لأنني أُفكّر بزوجتي التي رحلت عن عالمنا، ظلمتُك، وأوجعتك، وأحزنتك، وكُنت أعلم باهتمامك البليغ بكلّ ما يخصّني، تلك التفاصيل الدقيقة التي كُنت تهتّمين بها كُنت أعرفها، رأيتك في كلّ مرّة وأنتِ تتزينين لي وأعرضتُ عنك وبتُّ ليلتي محزونًا...وما كنت أدري لمَاذا أفعل بك هذا! أو ربّما كُنت أعاقب نفسي بحرماني منك!

أجلسها برفق وجلس أمامها وأمسك بيديها وقال:

-شعرت بيدك في كلّ مرّة كُنتِ فيها تحكمين الغطاء على كتفي في الليالي الباردة وكُنت أتصنّع النَوم هربًا من عينيك، وأرهفت السّمع إلى صوتك الحاني وأنت تخبرينني هامسة أن...»أحبّك«..وكُنت أسرع بالهرب، حتى تلك القبلة التي كُنت تقتنصينها على رأسي كُنت أقرأ معناها وأتصنّع الجهل! أعتذر منك عن سنوات كنت فيها أسيرًا لنفسي فأوجعت قلبك، وأعدك أن يكون عمري القادم بين يديك أجمل، سأسمعك الحبّ، وأريك الحبّ، وأعيشه معك حتى ألفظ آخر أنفاسي، سامحيني...أحبّك.

أجابته بدموعها التي أغرقت كتفه، وغفرت له، وكانت «مَثابة» هي مثابته للحياة، وللحب، ولولده اللطيف الذي قرّت عينه برؤيته، وللحكم، ولعالم مدينته العجيبة التي ظللتها طيور الوَرَاشين، ولدنيا مملكة البلاغة التي يطير إليها المحاربون من كلّ مكان. مرّت عليهما لحظات حلوة، ونسمات معطّرة بالحبّ والشوق، كان صمتهما عن الكلام فيه الكثير من

المعاني، اقتربا من النّافذة يتأمّلان شوارع المدينة وقد بدأ الليل يزحف عليها بخفّة مع انسحاب تساقط المطر،كانت «مثابة» تضع رأسها على صدره وتحيط جذعه بذراعيها بينما كان شاردًا بعينيه وهو يقول:

-لا بدّ أن يُردم بئر «درّواس»، وسأقوم بإطلاق سراح السُجناء، وسأرسل بعثات للبيمارستان فقد أخبرني «حمزة» أنّهم يعلّمون الشباب الطبّ، وسألغي القوانين التي وضعها أبي، وسأساعد أهل وادي «الفراديس» من النوبيين المهاجرين على العودة لديارهم، وسأفتح أبواب المدينة لشعبِ «أوركا»

رفعت عينيها وشجعته بنظرة واثقة فأضاف وهو يتأمّل ملامحها الرّقيقة:

-لن تُظلم النّساء بمدينة «وَرَاشين»بعد اليوم، سينلن حقوقهن كاملة، ولن تُباع فتاة في سوق المدينة أبدًا، وسيعاقب من يفعل ذلك.

ثُمّ ابتسم قائلًا:

-سأوّظف بنات الحدّاد بالقصر ليكنّ بالقرب منك.

ضحكت «مَثابة» وقالت بمرح:

-أحسنت، فأنا أعشق هذا الثلاثي جدًا، كُن دومًا داعمات لي.

ثُمّ أضافت داعية له:

-أعانك اللّه على حمل الأمانة.

داهمتها نوبة قلق عندما تذكّرت ما عانته من «مَيلاء» و«سُندس» فسألته:

-هل من أخبار عن «سُندس»؟

-هربت من المدينة بابنتها، ما زالت تجد من يُعينها للأسف، وقبل أن أنسى...أتاني خبر موثّق أنها هي من قامت برشوة جارية من

جواري القصر لتضع السُمّ لأبي، وكانت تحيك مؤامرة لإلحاق التّهمة بـ«خلدون»، أرسلت خلفها من يتبعها..

-يا لها من ماكرة!

-انتبهي لنفسك، ما زال القصر يضم الكثير من المنافقين والمتلونين، سنحتاج وقتًا حتى نعيد بناء وهيكلة سكّانه.

هزّت «مَثابة» رأسها مُوافقة وقالت:

-قد تحتاج لمستشار تثق به، وأرى «سَاهور» يصلح لهذا، فهو عاقل وحكيم وأهل المدينة يثقون به ويُحبّونه، فاستعن به يا «أَشْهَم»

-سأفعل بإذن الله، وسيكون مُعلّما لـ«هُرهُور»

عاد ينقل عينيه متفحّصًا تفاصيل الشوارع التي بدت له من نافذة القصر هادئة ونظيفة بعد أن غسلها المطر الهتون، ثُمّ هزّ رأسه قائلًا:

-تحسّنت حالة أُمّي منذ وفاة أبي، أشعر أنّ هناك من كان يلعب في الخفاء ويسقيها ما يُذهب عقلها ويُمرضها، ويبدو أنّه توقّف خلال الأيّام الماضية.

قالت «مَثابة» بصوت حالم:

-لاحظتُ هذا، صارت نظراتها تضجّ بالحياة، وزال عنها الهوان واصفرار وجهها وتلك الرّجفة التي كانت لا تُغادر يديها!

-سأنقلها لجناح خاصّ، وسأدقق في اختيار من يرعاها.

ثُمّ مسح «أَشْهم» على رأس «مَثابة» وقال بحبور:

-شكرًا لأنّك كُنتِ تعتنين بها رغم قسوتي عليك يا «مَثابة»

قالت برقّة وعذوبة:

-لا بأس، فهي كأمّي، أتدري أنّها تذكّرت قلادة «هُرهُور»، وأنّها أخبرتني بأنّها هي التي خرجت خلف «رَسيل»، وأنّها ألبسته القلادة

بنفسها بعد ولادته وسلّمته للعجوز النوبية، ونصحتها أن تعود لبحر «حندس» حتى لا يقتلوها.

فغر «أَشْهَم» فاه وقال:

-كانت أُمّي دومًا تحاول الحديث معي عن «رَسيل»، وكانت تظنّها قد نجت بالفعل وأنّ لديّ أولادًا كثيرين يعيشون ببحر «حندس»، وكُنت أظنّها تهذي، وكانت طيور الوَرَاشين تنقر النّافذة في كلّ مرّة تبدأ في الحديث عنها، وتُصدر جلبة شديدة فكانت تصرخ وتضع يديها على أذنيها، وكان الأطباء يسقونها منوّمًا.

-يا إلهي!

-متى أخبرتكِ بهذا يا «مَثابة»؟

-اليوم، وأنت في الدّيوان، كُنت مشغولًا عنّا فأخذتُ «هُرهُور» ليراها، تعرّفت على القلادة فور أن رأتها حول عنقه، وأشرق وجهها عندما أدركت أنّه هو! بل وأخرجت من صندوق الحليّ الخاصّ بها نصفها الآخر، وضمّتهما إلى بعضهما البعض ليكتمل هذا النقش البديع، جناحان بديعان وسيف مقلوب يفصل بينهما، وأخبرتني أن أبحث عن شامة صغيرة بمنتصف ظهره فكشفت ظهره أمامها، ورأيناها معًا فشهقت وصارت عيناها تهميان بالدّموع، واحتضنته طويلًا، وانطلقت تغرقه بالقبلات، يبدو أنّها كانت تُحب أمّه للغاية.

أغمض «أَشْهم» عينيه وقال وهو يتنهّد بارتياح:

-الحمد لله الذي ردّه إلينا، الحمد لله

طرق «هُرهُور» الباب ودلف إلى غرفتهما على استحياء، أقبل «أَشْهَم» عليه وضمّه في حنان بليغ، تأمّل القلادة حول عنقه وابتسم، الآن اجتمع الجناحان، هو وحبيبته «مَثابة»، وسيظللان على «هُرهُور» الذي كانت عيناه مشرقتين بعد أن لمس الحنان من أبيه بعد حرمان طويل، وقد

سكنت على ثغره ابتسامة رائعة بعد أن استراح لعطف زوجة أبيه وحنوّها عليه، كان قلبه الصغير يضجّ بالفرحة، الآن شُفيت جراح ظهره، وقلبه أيضًا...

نشر الليل عباءته الأنيقة الموشّاة بالنجوم على أرجاء مملكة البلاغة، وبدأت أضواء الشعل تتراقص في جنبات مدينة «وَرَاشين»، وكانت طيور الوَرَاشين تتراصّ على أغصان الأشجار بنظام لتُدفئ بعضها البعض، هبّت نسمات باردة ففاحت رائحة زهور الزنبق والسّوسن التي تملأ حدائق القصر، وحملت معها رائحة الحبّ.

توجّه مع السيّد «هِشام» لغرفتهما في القصر، فقد استضافهما الملك «أشْهَم»، وأصرّ على مَبيتهما إكرامًا لهما، بعد أن خلد «هشام» للنوم، جلس «حمزة» يفكّر طويلًا في أخيه «خالد»، كان يشتاق إليه، إلى عناقه، إلى حديثه، إلى رائحته، مرّ بذاكرته كلّ اللحظات الحلوة التي أمضياها معًا، وابتسم عندما داعبه الكثير من ذكرياتهما معًا، كما أنّه تألّم للكثير من اللحظات العصيبة التي اختلف معه فيها، كما يختلف أي شقيقين، ودّ لو أنّهما لم يختلفا يومًا ما، أخرج «حمزة» خنجره وأخذ يتأمّله، الآن صار قلبه أكثر قوّةٍ وبأسٍ من ذي قبل، يستطيع مواجهة «الدّواسر» وحده!

أخرج الجمجمة من الحقيبة فأطلّت «رَيْهُقانة» وتمثّلت أمامه، ظلّت تُلحّ عليه ليعيد الجمجمة إلى المقبرة، أطالت النظر إلى عينيه وقالت:

-ألهذه الدّرجة تخاف من دخول وادي «الفراديس»؟

قال وهو ينظر إليها ببساطة:

-لا!

قالت بصوت متهدّج:

-فلماذا إذًا لا تذهب الآن وتردّ الجمجمة لصاحبها!

ثُمّ أضافت بصوت حالم:

-كُنت شهمًا مع كلّ من التقيت بهم، وساعدت الجميع، «هُرهُور»، و«هشام»، و«مَثابة»، و«أشهم»، فلماذا ترفض مُساعدتي؟

قال «حمزة» بدون تردد:

-سأُساعدك.

قالت «رَيْهُقانة» بعذوبة:

-شكرًا لك، وبالمناسبة، أظن أن أخاك من الأُمراء الثلاثة!

هزّ «حمزة» كتفيه وقال:

-لا أظنّ!

قالت بتعجّب:

-ماذا! وكيف عرفت؟

رفع حاجبيه وقال لها:

-طالما أنتِ تتلصصين عليّ فأنتِ تعرفين بأمر رسالة «مِسكة» وما فيها.

-أنا لا أتلصص عليك، أنا....

قاطعها «حمزة» قائلًا:

-ذكرت «مسكة» في رسالتها أنّ الشخصيّة التي حلّت فيها تُشبهها في الظروف، والطباع، وقد كانت تُعاني الوحدة بعد فراق زوجها، والشخصية كانت أيضًا وحيدة بعد أن هجرها زوجها، كما أنّهما كانتا من نفس العُمر، والأُمراء الثلاثة أكبر سنًّا منّي أنا وأخي، وهم متزوجون، ومعهم زوجاتهم، وأخي «خالد» لم يتزوّج بعد، كما أن...

- كما أنّ ماذا؟

-تاريخ الميلاد، فكلّ منهم تاريخ ميلاده مُختلف عن تاريخ ميلادي أنا وأخي «خالد»، ولقد سألت عن تاريخ ميلاد «سَاهور» و«سنمَار»، نفس الشّهر، ونفس اليوم، ونفس السّاعة من الليل، حتّى أنَّ الملكة «أهاليل» أخبرتني بتفاصيل طفولتهما كانت أمّي قد أخبرتني عن مثلها يومًا ما.

-يا لك من ذكيّ، ولكن، ربّما هناك من وُلد في نفس اليوم غيرهما، فشباب قريتي «وَرَاشين» و«أوركا» كثيرون

-«سَاهور» يعشق التّمر والحليب الدّافئ بالقرفة، وينام متكوّرًا كالجنين على شقّه الأيمن، كما أنّه شديد التدقيق في أفعاله وكلماته، وحصيف الرّأي مثل أخي «خالد»

-إذًا هو «سَاهور»؟

قال «حمزة» والحيرة تسكن عينيه:

-لكنّ «سَاهور» يأكل ثمار التوت بكثرة، وأخي «خالد» لديه حساسية من التّوت ولا يقربه، على عكسي أنا فأنا أعشق التّوت، كما أنّ «سَاهور» كثير الصّمت وليس هذا من طباع أخي!

-هل هو «سِنمّار»!

-«سنمّار» يعشق الكستناء، وماهر في فنون القتال والرياضة، ويضجّ بالحيوية والنشاط كأخي «خالد».

صفّقت «رَيْهُقانة» وقالت:

-ألم أُخبرك أنّه هو!

أغمض «حمزة» عينيه وقال وهو يطرق جبهته بأصابعه:

-لكنّه عنيد وشرس، ويُشاكس الفتيات، وليس هذا من طباع أخي «خالد».

ضحكت «رَيْهُقانة» وقالت:

-ربّما أخوك يشاكسهن وأنت لا تدري.

ثُمّ أردفت وهي تشير إليه بسبابتها:

-ستُصاب بالجنون!

سكت هُنيهة، كان يتعجّب من طريقتها التي بدأت تتغيّر أثناء حديثها معه، التفت تجاه السيد «هشام» وهو غارق في نومه، وقال وهو يحدّق في الجمجمة:

-حسنًا يا «رَيْهُقانة»، لا أعلم هل أنتِ صادقة أم لا، لكنني على أيّ حال سأذهب الآن إلى وادي «الفراديس»

صفّقت «رَيْهُقانة» وقالت بفرح:

-يا لك من مُحارب نبيل!

ثُمّ أضافت:

-أنت رقيق الحاشية، ودمث الخلق، كما أنّك...وسيم جدًا!

تلاشت من أمامه، كان يتعجّب من طريقتها في الحديث معه، والتي قد تغيّرت، نظراتها تغيّرت، حركاتها تغيّرت، حتّى نبرة صوتها تغيّرت، وكأنّها تتدلل عليه! هزّ كتفيه وأخرج الأَسْطُرلاب والخريطة، سيذهب الآن، كان مُندفعًا بجرعة من الحماس تملّكته بعد أن قتل الوحش ببئر «دِرْواس»، وربّما قد اغتر بنفسه! دارت الأرض من حوله، وظهرت الوشائج، فوثب كالأسد وتعلّق بواحدة منها.

23

«وادي الفراديس»

«حمزة».....

كان الظلام يلفّ وادي «الفراديس»، المطر يهطل بغزارة، صارت خطواتي أثقل وأنا أسير وسط الوحل، لأعيد تلك الكتلة العظمية المجوّفة إلى صاحبها، ترى من كان صاحب تلك الجمجمة؟ وأيّ عقل كانت تحتضنه؟ وأيّ روح كانت تسكنها قبل أن تموت وترحل وتهجرها لتكون وطنًا لـ«رَيْهُقانة»!

اشتدت الرّياح وصار سعف النّخيل يتكسّر ويتساقط من قوّتها، أغصان الأشجار السّاقطة على الأرض كانت تدور متزامنة مع الصوت المخيف للرّعد وتضرب ساقيّ وأنا أسير عكس اتجاه الرّياح نحو المدفن المهيب الذي يقع على أطراف وادي «الفراديس»، صعقات البرق كانت تنير المكان أمامي من آن لآخر، أطلّت المقبرة التي أخبرتني عنها «رَيْهُقانة» وكأنّ شاهدها الرّخامي المكسور يلوّح لي تحت ضوء البرق ليدلّني على مكانه، سرت نحوه وقد أنهكني كلّ ما مررت به، مددت يدي نحو سطح المقبرة وكان المطر قد اختلط بترابها فصار الرَّمْس[1] لينًا أسود شديد النعومة، كانت قدماي تغوصان وأنا أحمل الوحل بيديّ وألقيه خلف ظهري، فيجيء سيل المطر ويعيد سطح المقبرة مستويًا وكأنني لم أفعل شيئًا يُذكر، تعبت وسكنتُ في يأس ورفعت وجهي نحو السماء، سقط ماء المطر على وجهي واختلط بدموعي، ظهرت «رَيْهُقانة» مرّة أخرى كسحابة باهتة معلّقة في الهواء عقدت أصابعها ووضعتها تحت ذقنها وانحنت وأخذت تتوسّل إليّ لأساعدها، أعادت تجديد عهدها ووعدها بأن تكون في خدمتي إن حررتها، هززت رأسي لها لكي تتوقف عن الثرثرة

(١) الرَّمْس هو تراب القبر.

والبكاء، فقد كان صوتها يحرق رأسي، لفظ المطر أنفاسه الأخيرة فعدتُ أحفر، وأحفر، وأخيرًا بدأت أصابعي التي اسودت من الوحل تصطدم بسقف تابوت عتيق، رفعت يدي فتساقطت من بين أصابعي زخّات حالكة من ليل أرضيّ مدلهمّ، فاحت رائحة الموت! تحمّست وصرت أحفر بسرعة أكبر وكشفت سطح التّابوت، كان محفورًا على سطحه عبارات غريبة وقع في نفسي أنّها باللغة النوبية، لم أفهم كنهها، فوقفت حائرًا وناديت على «رَيْهُقانة» لتُخبرني بمعناها لكنّها لم تظهر! قررت فتح التّابوت، وفعلت! فصدرت منه رائحة قابضة وزنخة، وجدت هيكلًا عظميًا ملفوفًا في قماش متهلهل، ينقصه الجمجمة، فأخرجتها من حقيبتي وأعدتها بهدوء إلى مكانها، وهمست وأنا أُعيد وضع غطاء التّابوت:

-أرقد في سلام أيّها الغريب!

بدأت أعيد الرَّمْس الذي أخرجته فوق التّابوت، وإذا به يهتزّ ويرتج وكأنّ زلزالًا قد أصابه فجأة، سقطتُ على ظهري ورأيت ضوءًا ينبثق من تحت غطائه الذي ارتفع في الهواء ليخرج من تحته ظلّ كثيف عملاقٌ وأسود، شعرت بالاختناق، وكأنّ ملزمة تضغط على صدري وتخنقني، وارتفع جسدي في الهواء، كُنت مسلوب الإرادة وكأنّ روحي تصّعّد في السماء، ورأيت وكأنّ الضباب يغشى كلّ شيء حولي، تسارعت دقّات قلبي، وتناهي إلى سمعي همسات «رَيْهُقانة» وهي تردد طلاسمًا غريبة، ثُمّ انقطع اتصالي بالزّمان وبالمكان، وغرقت في الظلام، كانت عيناي مفتوحتين لكنهما مظلمتان، وكأنني فقدت بصري! سمعت صوت خفق جناحين، ظهر الرّمادي، قبض بمخالبه على كتفيّ ورفعني في السّماء، ناديته فلم يُجبني! ابتعد بي عن وادي «الفراديس» وأعادني لحدود قرية أوركا»، ثُمّ أنزلني برفق ووقف أمامي ونظر إلى عينيّ طويلًا، وأحنى رأسه، قال في كلمات مقتضبة:

-ربّما لن تراني بعد الآن، فالحاجز يزداد قوّة، وعبوره يؤثّر علينا، وقد نفقد حيواتنا ونحن نخترقه، لقد جازفت بعبوري لإنقاذك، فتلك المقبرة ملعونة ولا يفتحها إلّا السحرة لأغراض دنيئة.

قُلت في قلق:

-ظننت أنني فقدت حياتي عندما انقطع اتصالي بالزّمان والمكان وغرقت في دياجير مظلمة.

قال «الرّمادي» بصوته الرّصين:

-تزداد مهمّتك صعوبة يا بنيّ، الملكة «الحوراء» تبذل جهدًا كبيرًا لتُساعدك، لكنّ الرياح لا تحمل لها أخبارك كما اعتادت دومًا وهي تنصت لأخبار المُحاربين، لقد سَمعتّ طلاسمًا غريبة تُردد على مقبرة في وادي الفراديس وعلمت أنَّك هناك فأرسلتني فورًا إليك.

ثُمّ تقدّم «الرّمادي» خطوة وقال:

- هناك خبر هام! وقد يُحزنك!

-وما هو؟

-لقد قام «الدّواسر» بخطف حفيدا الملك «قاموس»...«سَاهور»، و«سِنمّار».

انصرف «الرّمادي» وحلّق بعيدًا وتركني في حيرة، هرولت نحو معبد «سَاهور» ووجدت السيّد «هشام» ينتظرني هناك، أخبرني بما حدث داخل القرية، وكيف دلفت عصبة من شباب «أوركا» الذين أُخرجوا منها لأنّهم ملبوسون بالدّواسر، واقتحموا قصر الملك «قاموس»، وهددوه بقتل حفيديه، وطالبوا بتسليمك لهم في الحال، وعندما لم يعثروا عليك، قاموا بخطف الحفيدين، ولم يتمكّن حرّاس الملك «قاموس» من تخليصهما من أياديهم.

جلست في ركن أُحاول استعادة رباطة جأشي لكي أخطط لخطوتي القادمة، كان قلبي يخفق بشدّة، ربّما أخي «خالد» بين يد «الدّواسر» الآن!

بجبين يتفصّد عرقًا، وبنظرات يملؤها التصميم، وبقلب ينتفض انتفاضًا وكأنّه يدقّ طبول حرب قريبة، وبخطوات واثقة، وقد تبعثرت عواطفه في كلّ اتجاه فباتت فكرة واحدة تحتل دماغه،كان «حمزة» يقترب وحده...

لا بدّ من العودة لتحريرهما معًا، فلا مجال للشكّ أن أخاه «خالدًا» بينهما، إمّا هو «سَاهور» أو «سنمّار»، لم يكن الدخول إلى وادي «الفراديس» سهلًا، لكنّه لن يفقد أخاه «خَالد» هنا على أرض مملكة البلاغة، لن يتركه للموت، ولن يتخلّى عنه ليقع فريسة لمصير يُشبه مصير السيّد «هِشام»، الذي قد بدأ يشك في كونه زائرًا وصل إلى هنا كما وصل أخوه منَ خلال ممر من تلك الممرّات الغريبة.كان سكان الوادي الملبوسون بأجساد «الدّواسر» يقفون في سكون، لولا أعينهم التي كانت تروح وتجيء، وصوت أنفاسهم المتلاحقة لظنّهم تماثيلَ وأصنامًا مثبّتة على الطريق، تركوه يمرّ، سار بينهم بحذر متوجهًا نحو قصر «قلب العقرب»، كان فمه يختلج، لم يستطع النطق بكلمة، هو الآن وحده، ليس هناك من يربّت على كتفه، لم يظهر «المغاتير»، ولا «المجاهيم»، ولا «الزّاجل الأزرق» الذي حدّثه عنه أبوه، ولم ير «عُبيدة» و«مُوراي» اللذين أخبرته عمّته عنهما، حتى السيّد «هشام» ليس هنا الآن، وقد تلاشت «رَيْهُقانة» والتي صدق ظنّ السيّد «هشام» بها وكانت كاذبة مخادعة ولم تفِ بوعدها له، ولم تعاونه أو تقدّم إليه خدماتها كما زعمت، أو حتى أبلغت «المجاهيم» بحاجته إليهم هنا..
دلف «حمزة» القصر وصاح مناديًا عليهم بصوت جهوري مزلزل:
– هبّوا إليّ أيّها «الدّواسر»، ما عدت أخشاكم، أنا هنا الآن..أتيتكم بنفسي
انقضّت عليه عصبة منهم وأمسكوه مِن ذراعيه، كان يحاول التملّص منهم، وكانوا يسكنون أجساد شباب «أُوركا» الأقوياء، فكان من الصعب

التغلّب عليهم، ضربات متلاحقة أطاحت به، استطاع أن يتخلّص منهم، تكوّر على نفسه وأمسك ببطنه متألّمًا من ضربة شديدة وجهت إليه، حاول أن يُخفي يده وهو يسحب الخنجر الحلزوني، وتذكّر كلمات كبير الأطباء في البيمارِسْتَان عندما أخبره أنّ الخنجر وحده لا يكفي، وأن القوّة في اليد التي تقبض عليه وتثق بقدرة اللّه وليست في الخنجر نفسه، عندما تلاشت كلّ الأسباب أدرك أنّ العون من اللّه وحده، أخطأ عندما كان يستأنس بصديقه النوبي، أو يطلب العون من السيّد «هشام»، أو ينتظر معجزة لتحلّ له مشكلته من «رَيْهُقانة» و «المجاهيم»، استطاع أن يُخرج الخنجر من حقيبته، بقبضة تثق بقدرة اللّه وليس بالوسيلة التي يمسكها، وقف أمامهم ببسالة، وصرخ صرخة اهتزّت لها أركان القصر، رأوا الخنجر في يده فتراجعوا، قال «قلب العقرب» وهو مستقرّ على عرشه أمامه:

-زئير الوحش لا يكفي لقتل الفريسة.

قال «حمزة» بثبات آسر:

-للوحش مخالب وأنياب، فلنتقاتل!

قال «قلب العقرب» بصوت يشبه الفحيح:

-حتى لو مات أخوك؟

قال «حمزة» وعروقه تنبض:

-حتى لو مات أخي، فذاك قضاء اللّه!

بحركة رشيقة خاطفة وجَّه نصله نحو منتصف صدر واحد منهم وسحبه للأعلى وكأنّه يقتنص خيطًا رفيعًا فبدأت تظهر لجسده هالة ملونة بدأت تُسحب تجاه نصل الخنجر وتدور في حلقات حلزونية، وبدأ الرّجل يصرخ و«حمزة» يتشبث بخنجره، انقطع صراخه فجأة وسقط على الأرض، أدرك «حمزة» أنّه خلصه من كيان أثيري كان يتملّكه، فاستدار

نحو الآخر ووجه الخنجر تجاهه، وكرر ما فعله، ظهر «مَردان» فجأة وكان لظهوره هيبة، كانت الوحوش تتبعه، بدأت الوحوش تلج القصر وتدلف من أبوابه، حلّقوا حول «حمزة» وبدأ يغرز كيانات «الدّواسر» الأثيرية في أفواههم، قضى وقتًا طويلًا وهو يسحب الكيانات الأثيرية، ويخوض معركة جانبية، ثُمّ يقترب وحش فجأة ويستسلم له ليستقبل سجينًا آخرَ من الدّواسر، لو رُوي له هذا من قبل ما كان ليصدّق كلمة مما يفعله الآن بيديه، وبخنجره، وبيديه في أفواه وحوش لم ير قبحًا كقبحها، ولكن ملامحها ما عادت مروّعة كما كانت من قبل، وبقلب صار الآن أقوى يقينًا من ذي قبل!

تساقطت أجساد شباب «أُوركا» الذين تحرروا من أسر «الدّواسر»، كان في حالة بائسة، وبدوا وكأنّهم مرضى، بدأوا يفيقون وهم يتخبّطون، وبعضهم يزحف على الأرض..

كان «سَاهور» و«سنمّار» مقيّدين بالأغلال، رنا إليهما بنظرة خاطفة فوجد «سنمّار» يحطّم قيوده بنفسه، لقد تمكن «الدّواسر» من اختراق جسده، فَقد كان خوفه من فقدان أخيه «سَاهور» هو نقطة ضعفه التي جعلتهم يتمكنون منه، وصار صراع «حمزة» الآن معه! أرادوا تشتيت «حمزة» بدفعه للوقوف أمامه، وقف في حيرة وكان متعبًا للغاية، كان«سنمّار» يضحك بهستيرية وهو يقترب منه، أخفى «حمزة» الخنجر وبدأ يَثب ويقفز كما علّمه «سنمّار» نفسه من قبل في قرية «أُوركا» على الشّاطئ، اشتبكا فأسقط «حمزة» «سنمّار» على الأرض وجثم فوق صدره، كان «سنمّار» يبدو متذبذبًا، تارَة يكلّمه بلسانه الحقيقي، وتارة يكلّمه بلسان الدَواسري الذي يلبسه، كان يصيح أحيانًا وهما يتصارعان:

«لا تستسلم»!

كان «سَاهور» يزوم كذئب وذراعاه يتخبّطان في قيدهما، لا يرى بعينيه ما يحدث لكنّه يرهف السّمع، وينصت إلى شقيقه «سنمّار» وهو يتصارع مع «حمزة»، صاح بصوت مرتعش وهما يتقلّبان على الأرض قريبًا منه:

«لا تقتل أخي أرجوك»

التفت إليه «حمزة» وقد جن جنونه..

هل هو «سَاهور» يناديه ألّا يقتل شقيقه «سِنمّار»؟

أم هو «خالد» يتوسّل لـ«سنمّار» حتى لا يقتله هو!

ثُمّ التفت تجاه خصمه «سِنمّار» الذي يُصارعه، ونظر إليه في حيرة، هل هو أخوه «خالد»؟ ولا يستَطيع السيطرة على نفسه! أم ماذا؟ تركه وتراجع للخلف وصاح بانفعال:

-أيّكما أخي...من منكما «خالد»؟

بدأت عصارة الخوف تجري كخيط رفيع في دمائه، أحسّ بلسعاتها في كيانه، وقف «قلب العقرب» الذي كان يراقبهم ببرود وقال بتشفٍ وعيناه المسلوختان تثقب وجه «حمزة»:

-الآن أنت خائف من أن تفقد أخاك، وتخشى عليه من الموت، تلك هي نقطة ضعفك التي كُنت أنتظرها.

كان وقع كلمات «قلب العقرب» على «حمزة» كلدغة دبّور، دقّ قلبه بقوّة وتقلّبت عيناه في المكان وكأنّهما خرجتا من معقليهما، شعر أنّه يختنق، وأنّ هناك من يعصر قلبه عصرًا، تراءى له «قلب العقرب» بصورته الحقيقية البشعة، كان «حمزة» يشعر أنه ينسحق، وهناك من يتسلل في عظامه وتحت جلده، الآن سيسيطر عليه للأبد، الآن سيجعله عبدًا وأسيرًا له لينتقم من جدّه «أَبَادول»...

بدأت الوحوش تزأر وتصدر عويلًا مخيفًا، فضرب «مَردان» الأرض بالمطرقة الحديدية التي كان يحملها فسكنوا كالخِراف أمامه، وفجأة! ظهرت «رَيّهُقانة» بصورة مختلفة، كان لها طيف أُرجواني شديد الوهج، امتلأ المكان بالكثير من الفتيات اللاتي يشبهنها، أتت لتُساعده وتفي

بوعدها، كانت تدفع زعيم الدّواسر بعيدًا عنه، شعر «حمزة» بها وهي تسحبه من جسده، ثُمّ تخللته بطيفها الأثيري، لقد شعر بها في كلّ خلية من كيانه..

ابيضت عينا «حمزة»، وسحب أنفاسًا متلاحقة ومتوترة، رأى «أَشْهَم» يدخل فجأة وفي يده سيف مزدوج، شاهده وهو يقطع رأس الرّجل الذي كان زعيم «الدّواسر» يسكن فيه، ثُمّ رأى البعض من حرّاس قصر «وَرَاشِين» يدلفون من أحد أبواب القصر، ما زال يشعر أنّه خائر القوى لكنّه يراهم ولا يقدر على الكلام، في تلك اللحظة أطلّ السيّد «هشام»، لقد جاء مع فيلق من حارسات الحدود، جيش من الحورائيات قد انتقل للوادي من غابة «البَيْلَسَان» لمساعدة «حمزة»، في دقائق قليلة كانت حارسات الحدود منتشرات في وادي الفراديس، يغرزن أشواكهن في أعناق سكان الوادي من الشباب الملبوسين بكيانات «الدّواسر» الأثيرية التي لم تُحرر بعد، قُتلت بعض الحورائيات بضربة واحدة من هذا وذاك، بالسيوف مرّات، وبالخناجر مرّات أخرى، وبضربات مُميتة على رؤوسهن، ولم تتوقف جهود الباقيات منهنّ وهنّ يَرين رفيقاتهن يتساقطن على أرض وادي الفراديس، فتلك رسالتهن، لا بدّ من حماية هذا المُحارب، لا بدّ من القضاء على «الدّواسر» ولن ينجح الأمر إلّا باتحاد الجميع، وكان أهل «وَراشين» قد عبروا الحدود فور أن رأوا «الحورائيات» بثيابهن الزرقاء يملأن الوادي، بنات الحدّاد كُنّ الأسرع وصولًا لـ«حمزة» بقصر زعيم الدّواسر، حملنه إلى الخارج، حررن«سَاهور» من قيده، وكان «أَشْهم» يبارز «سِنمّار» فقد كان يُحاول قتله.

خرجت «رَيْهُقَانة» من جسد «حمزة»، ووقفت أمامه وهي تتهادى، وقف يحملق في صورتها التي تمثّلت أمامه، بدت له جميلة جدًا كما لم يرها من قبل، استعاد رباطة جأشه، وتوجه بخنجره إلى «سنمّار»، و«سَاهور»، وحررهما من أسر «الدّواسر» وأخرج الكيانين الأثيَريين اللذين كانا

يُسِيطران عليهما، والتفت نحو «مَردان»، وأشار له ليصعد بالوحوش جبل «أَمَانوس» ليلحق به ويُسلسلهم في مغاراته..

وقفت «رَيْهُقانة» أمامه وقالت وهي تنحني بلطافة:

–لقد وفَّيت بوعدي، فهل أنت راض عنّي يا أميري العزيز «حمزة».

–لستُ أميرًا، لا تطلبي رضاي حتّى تخبريني بحقيقتك، فما رأيته في المقبرة شيء غريب، وأظنّ وراءك سرًّا غامضًا.

قالت بعذوبة:

–ستظلّ أميري العزيز للأبد، فقد انتصرت في معركتك، وهذا يُعجبني، هيّا..أسرع إلى «مَردان».

ثُمّ عقدت حاجبيها وقالت:

–ولكن احذر، ما زال زعيم «الدّواسر» حرًّا، سيتتبعك مرّة أخرى، لو أردت أسر البقية، اقبض عليه، أو اقتله!

كاد يقول شيئًا لكنّها اختفت من أمامه في غمضة عين، وقف يراقب شباب «أوركا» وهم يتعرّفون على أقاربهم بعد تحررهم من أرواح «الدّواسر» التي كانت تسيطر عليهم، سار بينهم وهو يتأمّل وجوههم، لو كان «مُولي» هنا لسعد بتلك اللحظة، ولعاد مع أهله لديارهم.

اقترب السيّد «هشام» منه وحمل ذراعه على كتفه، كان «حمزة» متعبًا وما زال يشعر بدوار خفيف، سار «هشام» بجواره دون أن ينبس ببنت شفة، أخرج «حمزة» الخريطة والأَسْطُرلابِ وطلب من السيّد «هشام» أن يُحدد مكان الزنازن أسفلِ جبل «أَمَانوس» طالع «هشام» «حمزة» بنظرة ذات معنى، وأمسك الأَسْطُرلاب، ووضعه في بقعة محددة، فبدأت الوشائج تظهر، تعلّقا بها وانتقلا إلى قمّة جبل «أمانوس»!

كان «حمزة» متعبًا، لكنّه يثق بالسيّد «هِشام» ويعلم أنّه أحضره هنا لسبب وجيه، سأله بتلقائية شديدة:

-لماذا نقلتنا هنا يا سيّد «هشام»؟ لا بدّ أن نذهب للزنازن لنكمل المهمّة مع «مَردان».

نطق السيد «هشام» بصوت مزدوج وقد بدت عيناه كجمرتين مشتعلتين، قال بصوت يقطر حقدًا وغلًا:

-سُحقًا لك يا حفيد «أبادول».

أمسك بتلابيب «حمزة» وبدأ يضربه، في تلك اللحظة أدرك «حمزة» أنّ «قلب العقرب» زعيم «الدّواسر» قد تلبّس بجسد السيّد «هشام» فور أن قطع «أَشْهَم» رأس الرّجل الآخر الذي كان يسكن جسده، كان «حمزة» يصدّ ضرباته ويدفعه بعيدًا عنه، فهو لا يحبّ إلحاق الأذى بالسيّد «هِشام»، فهو يُدرك أنّه مسلوب الإرادة الآن...

كان المكان مخيفًا ومهيبًا، الأرض منزلقة، وسفح الجبل ينحدر ساحبًا أقدام من يتحرّك فوقه نحو الحافّة، هبّت رياح شديدة البرودة، كانا يلهثان بينما كانت الأبخرة تتصاعد من فميهما، بدأت ضربات السيّد «هِشام» تزداد وتكون أكثر قساوة، سالت دماء «حمزة» على وجهه، بدأ «حمزة» يناديه ويحدّثه ليكون أقوى ويتغلّب على الروح الأثيرية التي تتملّكه بسبب الخوف الذي يسكن قلبه، كان يعلم أنّ السيّد «هشام» قد أصابه اليأس والحزن، لإدراكه أنّ رحلة «حمزة» أوشكت على الانتهاء، ولا بدّ من فراق، وكان الحزن يقتات على قلبه، فبدأ «حمزة» يدكّ هذا الخوف داخله بكلماته القوية التي تحثّ على التفاؤل واليقين، ذكّره بحوارهما فقال له:

-ألم تُخبرني أنّك لن تكفّ عن المُحاولة؟ قاوم ولا تترك اليأس يتسرّب إلى نفسك.

زمجر السيّد «هشام» وقال:

-صه أيّها الأحمق.

صاح «حمزة» وهو يتلقّى منه المزيد من الضربات:

- أنسيت ما قُلته لي...»ستتخلّص من الخوف مع كلّ خطوة تخطوها، ومع كلّ تجربة تخوضها، ومع كلّ معركة تكسبها أو حتّى تخسرها»

توقّف «هشام» عن ضربه وحدّق في عينيه فانطلق يكمل ليشجّعه:

-لقد تخلّصت من خوفي، وساعدتني كلماتك تلك وحان الآن دورك! تخلّص من مخاوفك.

هدر «هشام» بصوت مشروخ:

-لست خائفًا.

صاح «حمزة» وهو يتفادى صفعات السيّد «هشام»:

-أين النداء الداخليّ الذي يدفعك لكي تستمرّ، ألم تخبرني أنّك تُحبّ ما تفعله؟ وتحبّ الترحال؟

ثّم رفع «حمزة» صوته وصاح قائلًا:

-أيّها الرّحالة...لا تستسلم!

بدأ «هشام» يستعيد قوّة نفسه، وتحدّث بلسانه الحقيقي، كان يودّع «حمزة» قائلًا:

-وداعًا يا «حمزة»، لقد أحببتك كابن لي.

وسريعًا ما انطلق يقهقه بلسان «قلب العقرب» مرّة أخرى قائلًا:

-سأقتلكما معًا أيّها الحقيران.

وعاد يقول بلسان «هشام» والدموع تنساب من عينيه:

-ليتني مُحارب مثلك، حتى متى سأبقى هنا! لعلّني كنت زائرًا كأخيك وعلقت للأبد!

انقلبت عيناه مرّة أخرى، واحتضن «حمزة» أراد كيان «قلب العقرب» أن يقفز معه من فوق الجبل ليسقطه ويميته، ويهلك جسده مع جسد السيّد «هشام»، ظلّ «حمزة» يُقاومه، وكان ينادي على السيّد «هشام» ليحثّه على مقاومة «قلب العقرب» الذي يتخلل كلّ ذرّة في جسده، استجاب «هشام» وعاد يسيطر على نفسه وصاح قائلًا لـ«حمزة»:

-اقتلني يا «حمزة»، لو قتلتني وهو بين جنبات جسدي سيفنى كيانه الأثيري للأبد.

-لا...لا.

علا «قلب العقرب» وسيطر مرّة أخرى على السيّد «هشام» ودفعه ليخنق «حمزة» بيديه، فازرق وجه «حمزة»، وضاقت أنفاسه، لولا «رَيْهُقانة» التي ظهرت فجأة، وفرّقت بينهما، فقد كانت تراقبهما عن كثب... اعتدل «حمزة» ووجه الخنجر نحو منتصف صدر السيّد «هشام»، فسقط على ظهره، وبدأ الكيان الأثيري لزعيم «الدّواسر» يتجمّع عند نصل الخنجر، وأخذ «حمزة» يسحبه وهو جاثم على صدره، وكان يرفع يده للأعلى، لكنّ «رَيْهُقانة» أقبلت ودفعت يدي «حمزة» وضغطت عليهما فأدخلت الخنجر في صدر السيّد «هشام» و«قلب العقرب» معًا وقالت:

-سحقًا لك أيّها الخاسر.

كانت «رَيْهُقانة» قد كرهت ما قاله السيّد «هشام» عنها ولم تنسه أبدًا، وكانت تبغض زعيم «الدّواسر» وتسعى للقضاء عليه.

شهق السيّد «هشام» وكانت عيناه تتقلّبان في السماء وكأنّه يرى شيئًا ما، انتفض جسده وكما لو أنّه أصيب بصعقات كهربائية، ظلّ «حمزة»

يُناديه، أخرج الخنجر من صدره برفق وتحسس جرحه، لم تسل منه قطرة دماء واحدة! قبض السيّد «هِشام» على يد «حمزة» وقال له:

-«بعض المعارك خُسرانها شرف يا صديقي».

لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يبتسم له، وبدأ جسده يتفتت كما لو أنّه ندف من الثلج الأبيض تتناثر وتتبِعثر وترتفع وتطير وتذوب في بحر الضباب الذي يحلّق حول قمّة جبل «أمَانوس»، كان «حمزة» يرتجف ويختلج، نظر لـ«رَيْهُقانة» بحنق شديد وقال غاضبًا:

-لماذا؟

ضحكت ضحكة مريرة تقطر شرًّا ثُمّ تلاشت من أمامه، بقي «حمزة» وحيدًا فوق الجبل، مزّق مقتل السيّد «هشام» فؤاده وأتعبه، هو لا يعرف الآن أين اختفى جسده، لقد تعب من هذا العالم الغريب والسرمدي، أطبق عليه سكون ثقيل فانفصل عن الزّمان والمكان، لولا «الدّيسق» الذي أطلّ فجأة، ثُمّ نقل إليه ببصره صورة الوحوش وهي تزأر حول «مَردان»، تذكّر أنّه لم يتمّ مهمّته، فالتفت حيث كان «الأَسْطُرلاب» على الأرض، أسرع والتقطه ووضعه فوق الخريطة، وعاد إلى الزنازن أسفل الجبل، وبدأ يُسلسل الوحوش مع «مَردان»، ظهر «المجاهيم» لأوّل مرّة أمامه في موكب جليل، زال الحاجز الذي أخبره كبير حرّاس المكتبة أنّه فصلهم عن «المجاهيم» و«المغاتير»، وعاد لمملكة البلاغة اتزانها، عاونه «المجاهيم» في التقاط كيانات من تبقى من «الدّواسر»، وسلسلوهم جميعًا، ثُمّ وقف زعيم «المجاهيم» ليلقي تعاويذَ خاصّة لإغلاق أقفال أصفادهم للأبد، زأرت الوحوش لآخر مرّة بصوت مروّع ومجلجل، ثُمّ سكنوا فجأة، وحمل «مَردان» مطرقته، وجاء لينحنى أمام «حمزة» دون أن ينطق بكلمة واحدة، وسار نحو الضباب ليلتقمه بغموضه واختفى للأبد...

انصرف «المَجاهيم» بعد أن حيّوه مرّة أخرى عقب توافد الصّقور على جبل «أَمَانوس» حتّى غطوا سفحه في مشهد جليل، بسط «الرّمادي» جناحيه وغقغق بصوت عذب كان له رنيم عجيب، فطاروا فجأة في أسراب منظّمة، وبدأوا يحلّقون حول قمّة الجبل الأيهم العظيم، وكأنّهم يؤدون طقسًا ما! يرتفعون وينخفضون في تكتيك ونظام، وهم يغقغقون، وصدى أصواتهم يتردد في الأجواء، بدوا للناظر كمن يُنشد نشيدًا ملحميًا يحيّون به هذا المُحارب ويحيُّون معه الجبل الذي يقف عليه... «أمَانوس»، ذلك الجبل الذي ترك التاريخ على سفحه بصمات لا تُنسى، وارتفعت قمّته لتشهد الأهوال، حتى كهوفه ومغاراته سكنت فيها أسرار وأسرار، حتى الرّياح باحت له بما لم تبح به لأحد قطّ! اهتزّ الجبل فجأة، وكأنّه يتنفّس، وكأنّ له روحًا، وعينين، وأذنين، لكنّه برغم ذلك كله يعجز عن البوح والكلام! تأرجح «حمزة» في مكانه عندما اهتزّت الأرض تحت أقدامه، ثم سكن كلّ شيء حوله فجأة...

تقدّم «الرّمادي» من «حمزة» ليواسيه، كان يعلم أنّه حزين لمقتل السيّد «هِشام»، كان يقف كالصّنم ويُنصت لكلماته وجراح وجهه ويديه ما زالت تنزف الدّماء، لقد خاض «حمزة» الكثير من المعارك اليوم، اهتزّ كتابه في حقيبته، الآن بدأت الجمل تتوافد تباعًا وتظهر منقوشة بخطّ بديع على أوراقه، استردّ كتاب «أوري» كلماته بفضل هذا المُحارب النبيل، الّذي يؤمن أنّ الأخوّة أثمن ما في الوجود، ولن تطير القيم النبيلة وتُحلّق أبدًا إلّا بجناحين، متماثلين، متساويين، متوازيين، لا تفريق بينهما، لا بحكم الآخرين، ولا بالسّيف، تمّت المهمة أخيرًا وعاد «حمزة» إلى قرية «أوركا»، وكان قلبه يتمزّق حزنًا على صديقه الرّحالة.



24

هجين!

عاد «حمزة» إلى قرية «أُوركا» بعد أن قام بتسليم كتابه للمكتبة العظمى بعد استرداد كلماته، كان يبحث عن «مُورفُو» و«مُونارش» ليسألهما هل رأت إحداهما الهالة المضيئة فوق رأس أيّ شخص هنا أم لا، فقد استرد كتاب «أوري» كلماته، وتمّ تسليمه للمكتبة العظمى، ولا بدّ أن تلك الهالة المُضيئة ظهرت فوق رأس الشخصية التي حلّ أخوه فيها كزائر لمملكة البلاغة، كانت القرية تقيم احتفالاً رسميًا بزواج «سَاهور» و«مُونارش»، الزينة في كلّ مكان، الزهور البديعة بألوانها تغلّف كل شيء، كانت «مُونارش» تقف متألّقة برداء أرجواني اللون، له قلنسوة مذهّبة الأطراف بشكلٍ بديع، أكمام ردائها الواسعة كانت تصطف على حروفها فصوص من اليًاقوت الأحمر، أمّا «سَاهور» فكان وسيمًا في ثيابه الكتّانية البيضاء، وقد تمنطق بحزام فضِّي اللون أهداه له جدّه، ووقف والابتسامة تضوي على ثغره، شباب الأُوركا يرقصون رقصات إيقاعية على صوت دقّات الطبول، والفتيات تثرثرن وتبتسمن من بعيد في خجل، الملكة «أهاليل» أكثر سعادة من ذي قبل، حتّى «السيّدة الملوّنة» أتت مع وفد من كبار الحورائيات إلى القرية لتُشارك «مُونارش» في احتفالها بزواجها، وكانت المفاجأة هي زيارة الملكة «الحوراء» للقرية ومعها ابنها «الزّاجل الأزرق» الّذي سعد «حمزة» برؤيته، فبعد سيطرة «حمزة» على «الدّواسر» وسلسلتهم في مغارات جبل «أمانوس» مرّة أخرى، استطاع «المغاتير» و«المجاهيم» ممارسة أنشطتهم بحرّية وعاد لمملكة البلاغة توازنها، استقبل الجميع «حمزةٍ» بالترحاب وكان «سنمّار» أوّل من ركض نحوه ليُعانقه، اجتمع شباب الأُوركا وكانوا قد عرفَوا بقصّة شقيقه «خالد» الذي لا يعرف من هو حتّى الآن، كانوا يتلفّتون وكلّ منهم يسأل رفيقه، ربّما أنت، أو أنت، أو أنا! لماذا لا بدّ أن

يكون «سَاهور»، أو «سنمّار» بالذّات؟ بينما كان «حمزة» يُلح في السؤال على «مُورفُو» التي وقفت بجواره تحدّق فوق الرؤوس باحثة عن تلك الهالة المُضيئة، طلبت «الحوراء» الكلمة، فأنصت الجميع، قالت وكانت كل العيون معلّقة بوجهها:

-اليوم نختم رحلة مُحارب عزيز على قلوبنا، منح الكثيرين هنا حبّ الأخ لأخيه، قدّم المساعدة لغيره وكأنّه يقدمها لأخيه الذي هو من لحمه ومن دمه، وأنهى مهمّته، واسترد كتابه، وهانحن نقف أمام شعبين وهاهما الجناحان يجتمعان، وتوقف الصراع بالسيف للأبد، وتعلمون جميعًا قصّة «خالد»، شقيق «حمزة»، زائر مملكة البلاغة الذي يعاني بيننا اليوم وهو بين جنبات شخص هنا لا نعلم كينونته، ولكي يعود الجناحان معًا، ويجتمع الشقيقان، ويعود «خالد» من ممر «أمانوس» في سلام، قبل أن يُغلق هذا الممر للمرة الأخيرة، لا بدّ أن تضحي واحدة من الحورائيات بنفسها، وتلك مهمّة الحورائيات التي لا يتأخرن عنها، وقد أتت اليوم «مُورفُو» لتؤدي مهمّتها، ولهذا أطلب منكم السكون، والحضور جميعًا بوقوفكم أمامها لتتمكّن من التعرّف عليه، فنحن لا نعلم أين هو «خالد» الآن.

شاعت الفوضى وتعالت همهمات الحضور، الكلّ يريد أن يعرف كيف ستتمكّن «مُورفُو» من التعرّف عليه! وأخيرًا بدأ السكون والهدوء يزحف عليهم تدريجيًا، قالت مُونارش بتأثّر:

-ولكن...«مُورفُو»!

سالت دموع «مُونارِش» على وجنتيها وهي تحتضنها، وكانت «مُورفُو» متماسكة وتقف في عزّة وشموخ، تقدّمت لتحيي «السيّدة الملوّنة»، ثُمّ «الآنسة الزرقاء»، ونالت شرف تحيّة الملكة «الحوراء»، وهزّت رأسها وهي تنظر لـ«حمزة» الذي كان في غاية التأثّر، وقفت «مُورفُو» أمام أفراد الشعبين، ومرّت بعينيها على وجوههم، كان «سَاهور»، و«سِنمّار» أوّل

من وقف بالقرب منها، وكان «حمزة» يقف أمامهما ينتظر إشارة منها، يُريد أن يعرف في أيّ شخصية يقبع أخوه «خالد»، لمعت عيناها فأشارت برأسها لجهة ما، فاستدار «حمزة» نحو الجهة التي أشارت إليها ليرى من الذي تقصده، وفور أن استدار مرّ سهم بجوار كتفه ورشق في صدر «سَاهور»، كان «خلدون» هو الرّامي، تسلل بمعاونة مُريديه من القصر ليقتل «حمزة»، لكنّه أصاب «سَاهور» بدلًا منه، قال «خلدون» وهو يثقب «حمزة» بنظرة مقيتة بينما خدّه يرتعش:

-أنت السبب في كل ما حدث لنا أيّها المحارب اللعين!

صرخت «مُونارش» صرخة مزّقت القلوب، جنّ جنون «سِنمّار» وركض نحو «خلدون» وانقض عليه وقتله في الحال، بينما هرول «حمزة» نحو «سَاهور» وهناك فكرة واحدة تسيطر على عقله الذي كان يعمل كطواحين الهواء، أخرج الخريطة، ووضع الأَسْطُرلاب» على بحر «حِندس»، وكانت الملكة «أهاليل» بجوارهما، احتضن «حمزة» «سَاهور» ودماؤه تتدفّق من جرحه على صدره، تراجع الجميع عندما رأوا دوّامات الهواء تطوف بالشّابين، ظهرت الوشائج، فحمل «حمزة» «سَاهور» على كتفه وتعلّق بواحدة منها، وسقط في بحر «حندس» معه، وظلّ يغوص، ويغوص، لفّه الظلام من كلّ صوب، لامس القاع بيديه ومدده هناك، شعر «حمزة» بصدره يضيق، وكأنّه سينفجر، وشعر بضغط شديد على جمجمته، بدأ جسد «سَاهور» ينتفض وينتفخ ويزداد حجمًا، بينما كان «حمزة» يعاني، فتفرّقا تحت الماء، في قاع البحر المظلم، الذي لفّ «حمزة» بدياجيره وحلكته، ونظر الموت في عين هذا المُحارب عن قُرب، أراد أن ينطق بكلمة التوحيد ففتح فمه واندفع الماء إلى جوفه، ففقد وعيه في الحال.



على أرض مملكة البلاغة قد يختفي مُحارب، وقد يموت آخر، وقد يعلق بعضهم، وقد يعيش أحدهم بروحه وسيرته العطرة للأبد...

كان البحر ثائرًا وأمواجه تصطكّ ببعضها البعض، حوت رشيق كان يدور تحت سطح الماء، بفمه العريض بدأ يدفع جسد «حمزة» نحو السّطح، استطاع أن يضربه عدّة ضربات قبل أن يرفعه ليُنعشه، انطلق الحوت يمخر عَباب البحر وهو يحمله على ظهره، طرحه على الشاطئ بقوّة، وعاد يغوص، كان هذا هو «سِنمّار» الذي قفز في بحر «حِندس» بعد أمّه الملكة «أهاليل» التي غاصت فَور أن رأت «حمزة» وهو يضع «الأسْطُرلاب» على البحر، ففطنت لما يدور برأسه، وأدركت ما سيفعله ليُساعد ابنها «سَاهور» على التّحول لحوت بسرعة، تحوّلت هي الأُخرى لتبحث عن ابنها «سَاهور»، وكان «سنمّار» يعاونها، لازمت «سَاهور» وتركت «سِنمّار» لينقذ «حمزة»، كان وجه «حمزة» مزرقًا وقد توقفت أنفاسه، فبدأ «أَشهم» الذي كان أوّل من وصل إليه بعد أن طرحه «سنمّار» يحاول إسعافه، ضغط على صدره مرّات بيديه، ونفخ الهواء في فمه لعلّه يُنعشه، شعر باليأس فأخذ يضرب على صدره بقبضته ويصيح مناديًا عليه، ساد صمت ثقيل بدده «حمزة» بشهقة عميقة ليفتح عينيه، أفاق أخيرًا، وجلس يخرج ما بجوفه من ماء البحر المالح، وقفوا جميعًا ينتظرون ظهور «أهاليل» مع ابنها لعلّه يتحوّل إلى حوت من حيتان «أوركا» وينجو من الموت، طال الانتظار وكانت «مُونارش» تبكي مكلومة لما وقع في دقائق فقلبَ حياتها رأسًا على عقب، بكت نساء «أوركا» لبكائها...

اقترب «حمزة» من «مُورفُو» وقلبه يختلج، سألها بصوت واهن:

-هل رأيتِ الهالة المضيئة فوق رأس أحدهم؟

اتسعت حدقتا عينيها وهي تقول:

-نعم رأيتها.

سألها ودقّات قلبه تتواثب:

-فوق رأس من؟

قالت بحيرة:

-التوأمان «سَاهور» و«سِنمّار»

-أيّ منهما؟

-لا أدري!

-كيف هذا!

قالت بتوتّر شديد:

-كانت بينهما!

وقفا يتلجلجان في حيرة، وكان رأس «حمزة» يضجّ بالأسئلة، بدا وكأنّه على حافّة الانهيار، لن يستطيع الرّحيل قبل أن يطمئن على عودة أخيه. كان الجميع يراقبون سطح البحر، ظهر أخيرًا حوت، ثُمّ حوت آخر، ثُمّ حوت ثالث يتخبّط في حيرة، أخذ الثلاثة حيتان يصدرون صيحاتهم المنغّمة التي يعرفها أهل أُوركا، تعالى صياح شباب «أُوركا» ردًا عليهم، خفق قلب «مُونارش» لأنّها لا تفهم ما يقال، وكانت تحسّ أن هناك خطبًا ما، ابتعد حوت منهم فعرفوا أنّها الملكة «أهاليل» فقد توجّهت للجهة المخصصة لنساء الأوركا المتحوّلات، أسرعت لتستعيد هيئتها في ركن قصيّ بعيدًا عن الأعين، وبقي الحوتان الآخران في الماء، لم يخرجا من البحر وبقيا يصدران تلك الصيحات، ويتبادلان حوارًا مع رفاقهم على الشّاطئ، وكان الآخرون ممن لا يعرفون لغتهم يحتاجون للترجمة، بدت على وجوه أفراد الأُوركا علامات الحزن، وكانت «مُونارش» تتنقّل بينهم وتسألهم في هلع:

-ماذا يقولان؟ من هذان؟ هل «سَاهور» بخير؟

لم يجيبوها إشفاقًا عليها، فأقبلت أخيرًا الملكة «أهاليل» بعد أن ارتدت ثيابها، كان وجهها مهمومًا وحزينًا، قالت في شجن:

-«سَاهور» بخير، جرح صغير في جسده، لكنّه لا يرى بعينيه، ويسبح بصعوبة، ولا يستطيع استعادة هيئته البشرية.

صاحت «مُونارش»:

-ماذا تعنين؟ أين هو؟ أيّهما «سَاهور»؟

انطلقت نحو البحر وأخذت تناديه بصوت يخنقه البكاء، اقتربت «أهاليل» منها واحتضنتها وقالت:

-هو يُحاول، لكنّه لا يستطيع الآن، بعض الحيتان تفشل في البدايات وتحتاج لتكرار المحاولة، وبعضها لا ينجح إلّا خلال الليالي الحنادس في أواخر كل شهر عربي، ونحن الآن في منتصف الشهر.

أجهشت «مُونارش» بالبكاء وقالت:

-وبعضهم لا يعود، أخبرني «سَاهور» بهذا من قبل، لنِ أره مرّة أخرى أليس كذلك؟ لن أحتضنه بين ذراعي؟ كُتب عليّ أن أحرم من الحبّ الذي عشت أحلم به، لو كُنت أعلم أن الفراق موجع لما أحببت.

احتضنتها «أهاليل» مرّة أخرى وقالت:

- سنُساعده، لا تنسي أنّه ضرير، وتلك أوّل مرّة، و«سَاهور» كان لا يرغب في التحوّل أبدًا إلى حوت كما تعلمين، اصبري يا ابنتي، اصبري.

كان «سَاهور» يصدر صوتًا غريبًا يُشبه البكاء، بدأت «أهاليل» تترجم لها كلماته، كان خائفًا، وحزينًا، ويشعر أنّ هناك من خلع قلبه من بين أضلعه، أخبرهم أن يُكملوا ما بدأوه لمساعدة «حمزة»، كان يفكّر فيه حتّى وهو في محنته تلك، استقرّ الحوتان قرب الشاطئ في ماء البحر، واجتمع

أهل القرية ومن حضروا من مدينة «وَرَاشين» أمامهما، ووقفت «مُورفو» مرّة أخرى، وهنا تقدّمت السيّدة الملونة وقالت بجدية شديدة:

-لا يا «مُورفُو» لن تكوني أنت هذه المرّة، فـ«مُونارش» تحتاجك، ربّما يستغرق الأمر شهورًا وسنوات عديدة، وربّما لا يعود «سَاهور»...

أجهشت «مُونارش» بالبكاء وخرّت على ركبتيها، مسحت «السيّدة الملوّنة» على رأسها والتفتت نحو «مُورفُو» وأضافت:

-ابقي معها يا ابنتي، كنتِ دومًا حارسة ذكية وشجاعة، وها أنت قد أشبعت فضولك ورأيتِ الدنيا خارج غابتنا، لا تتركيها حتى تطمَئنّي عليها، أو...

صمتت «السيّدة الملوّنة» هنيهة وأضافت:

-ستظلّ غابة «البيلسان» بيتكما الأوّل، عودا إليها إن شئتما في أيّ وقت.

ثُمّ استدارت تجاه «الآنسة الزرقاء» وقالت لها:

-من اليوم غابة البَيْلَسَان بين يديك، وأنتِ المسئولة عنها.

ثُم خلعت تاجها وألبسته إياها بإجلال، فانحنت «الآنسة الزرقاء» في وقار واستجابت لأمر ملكتها، بينما تقدّمت «مُورفُو» من «مُونارش» واحتضنتها ولازمتها، هزّت «الحوراء» رأسها في امتنان وقالت للسيدة الملوّنة:

-يا لها من تضحية عظيمة.

قالت «السيّدة الملوّنة»:

-هذا دَين في رقبتي، لقد أنقذ «أبادول» حياتي يومًا ما، ولا بدّ أن أردّ الجميل لحفيده، تلك رسالتنا

رفعت السيّدة الملوّنة ذراعيها في الهواء ومدّتهما، ومرّت بعينيها على وجوه من أمامها بحبور، وأطالت النظر للحوتين الساكنين في الماء أمامها، «سَاهور» و«سنمّار»، فقد رأت الهالة المُضيئة تدورهناك وهي معلّقة في الهواء، فابتَسمت ثُمّ أغمضت عينيها، وانبثق وميض متلألئ وأحاطها وتناثرت منه شظيات ذهبية مضيئة، وبرز لها جناحان عظيمان مضيئان، ازدادت توهّجًا، وحدث انفجار خفيف هبّت معه نسمات لطيفة تحمل رائحة أزهار «البَيْلَسَان»، واختفت السيّدة الملوّنة وتلاشت من أمام أعين الجميع، وبقي مكانها فراشة بديعة زاهية الألوان كانت ترفرف بجناحيها وهي تدور في الهواء، تعلّقت بها أنظار الجميع، طافت برؤوسهم، ووقفت هنيهة على رأس «حمزة»، ثُمّ لمست وجه «مُونارش» وكأنّها تلثمها برقّة، وانطلقت نحو البحر، وطارت مبتعدة حتى ابتلعها الأفق الرّحيب..

الآن عاد زائر مملكة البلاغة لوطنه كما عادت «مسكة» من قبل، الآن عاد «خالد» من خلال ممر «أمانوس» لبيته، فقد ضَحّت حورائيّة نبيلة بنفسها هنا من أجله، في تلك اللحظة كان السيّد «وَضّاح» يستعدّ لإغلاق ممر «أمَانوس» ومعه كوكبة من حرّاس المكتبة العظمى، أحدث إغلاق الممر دويًا مهيبًا سمعه أهل مملكة البلاغة جميعًا، هزّت «الحوراء» رأسها وتبادلت النظرات مع ابنها «الزّاجل الأزرق»، وزفّت الخبر لـ«حمزة» فتهلل وجِهه، واطمأنّ على أخيه. امتلأت السّماء بالصّقور وحلّقوا فوق جبل «أمَانوس» العظيم، غقغق صقر منهم كان يتقدم السّرب، فكان لصوته صدى مهيب ارتجت له أركان الجبل، فرددت الصقور خلفه غقغقات مشابهة، فتداخلت الأصوات في إيقاع جميل، وكأنّهم يُنشدون نشيدًا خاصًّا تحيّة لهذا الجبل الأيهم، فقد شَهد هذا الجبل العتيق تاريخًا لا يُستهان به، ومرّ على سفحه الكثير من المُحاربين، وسيظلُّ «أمَانوس» شاهدًا على ما يُقدّمونه لمملكة البلاغة.

أقبل «الرّمادي» وكان «حمزة» يتلفّت في حيرة، أراد أن يرحل وكلّهم بخير يودّعونه، لكنّه الآن يرحل بقلبٍ موجوع، اقتربت «الحوراء» وكانت بومتها «الشهباء» مستقرّة على كتفها وهي تنظر إليه، بينما عينا «الحوراء» مفتوحتان على وسعهما كبحيرتين هادئتين ورائقتين، قالت وهي تربّت على كتفه:

-عُد إلى ديارك، فقد أديت مهمّتك يا بنيّ.

-لكنني...موجوع و...

طفرت دمعة من عينيه وقال:

- «سَاهور»، و«مُونارش» موجوعان أيضًا!

قالت «الحوراء» بتأثّر:

-بعض الأوجاع تُحدث في النفس انكسارًا يرقى بها في السّماء، وجع ينقيها من الأدران ومن الكبر، يجعلها تفيق على حقيقة الدنيا، ويُهيئها أحيانًا لأمر أكبر، وهما يُهيئان لخطب عظيم، وأمرٍ جليل، فاصبر يا بنيّ.

-والسيّد «هِشام»؟ هل من جديد عنه؟

قالت «الحوراء» بحيرة شديدة:

-لم يُعثر له على جثّة حتى الآن، هلكت الصقور والهداهد بحثًا عنه، ليس له أثر!

أشار «حمزة» إلى صدره وقال بتأثّر:

-لكنّه ترك أثرًا هنا

هزّت «الحوراء» رأسها بتفهّم، ثُمّ اغمضت عينيها وابتسمت ابتسامة لطيفة، أقبل «الزّاجل الأزرق» مع «أَشْهم» لتحيّة «حمزة» قبل رحيله،

ودعه الحضور في إجلال وحبور، وأقبل «سِنمّار» مُسرعًا بعد أن خرج من البحر ليودّعه، عانقه طويلًا فهمس «حمزة» في أذنه:

-أخبر «سَاهور» أنني سأشتاق إليه.

هزّ «سِنمّار» رأسه وكانت عيناه ممتلئتين بالدّموع، كان «سَاهور» يقبع بهيئة الحيتان وسط البحر، أطلق صيحة طويلة منغّمة بلغة الأوركا، كانت تُشبه النّواح! التفت «سِنمّار» تجاه «حمزة» وقال بتأثّر:

-إنّه يُقرئك السّلام.

دمعت عينا «حمزة» وهو يقول:

-لا شكّ أنّه يشعر بالوحشة.

-نحن لا نتركه، إمّا أنا أو أُمّي معه

شرد «حمزة» قائلًا:

-أخبرني سابقًا أنّه يخشى التحوّل إلى حوت لأنّه سيفتقد صلاته وسجوده.

ابتسم «سِنمّار» قائلًا:

-كلّ منّا يذكر الله على طريقته يا صديقي، أخي «سَاهور» لا يتوقف عن ترديد «لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كُنت من الظّالمين» منذ أن استقر على حاله كحوت في ظلمات بحر «حندس»

لمعت عينا «حمزة» وهو يبتسم، ورفع يديه استعدادًا للرحيل فحمله «الرّمادي» وحلّق به في سماء مملكة البلاغة، مرّ على بحر «حِندس» العظيم فرآه من أعلى لأوّل مرّة، ثّم بدت له مدينة «وَرَاشين» الدائرية، ارتقت طيور الوراشين وشكّلت سربًا عظيمًا وتبعته، دارت حول «الرّمادي» في نظام بديع، ثُمّ تراجعت لمدينتها في سلام. انخفض «الرّمادي» عندما اقترب به من غابة «البَيْلَسَان» فارتفع فجأة سرب من الفراشات كان

يشكّل كتلة واحدة ثُمّ تبعثروا في السماء حوله فامتلأت بالألوان، وسريعًا ما عادوا لأشجارهم برقّة وعذوبة، ارتفع به مرّة أخرى وعبرا فوق القصور، والوديان، والقلاع، ونهر ريّان أخضر، وجبل «أمَانوس» الأيهم العظيم، ثُمّ الجبل الأحمر بقمّته الشهباء الّتي تبرز من وسط السّحب الحمراء التي تُحيطها، وقرى كثيرة، ثُمّ اخترقا ضبابًا كثيفًا، فأغمض «حمزة» عينيه مستسلمًا، وعاد أخيرًا لعالمه وحياته ليجد أخاه «خالدًا» يجلس منكسرًا بين أبويه في حالة يرثى لها والدموع تغرق وجهه، وقد دثّروه بالأغطية، فقد انتقل المسكين من بحر «حندس» مباشرة لمر «أمَانوس» ثُمّ لبيت جدّه فور أن قامت السيّدة المُلوّنة بتضحيتها العظيمة من أجله، كان يرتجف من شدّة البرد، ومن هول ما مرّ به وهو في هيئة الحيتان، هرع إليه واحتضنه، فأجهش «خالد» في البكاء كطفل صغير في حضن «حمزة» وقال:

-كُنت أعلم أنّك لن ترحل قبل أن تطمئنّ على عودتي.

فسأله «حمزة» بتلهّف:

-في أيّ منهما كُنت يا «خالد»؟

فقد «خالد» وعيه من شدّة التعب، ثّمّ أفاق بعد قليل واكتفى بالسكون في حضن الجناح الآخر الذي شدّ اللّه به عضده، وهدأ في حضن أخيه «حمزة»، لم يُجب عن سؤاله، وتركه يتخبّط في حيرته، كان أبوهما يقبّل رأسيهما، بينما انخرطت أمهما في البكاء وهي تلمس وجهيهما وكأنّها لا تُصدّق أنهما عادا بالفعل، قال «حمزة» لوالديه بانفعال شديد:

-آسف لأنني لم أصدّقكما! وددت لويعود بي الزّمن ولا أقول ما قلته لكما في أوقات يأسي وخوفي وغضبي وندمت عليه.

قال «أنس» بتأثّر:

-الحمد للّه، لم تخيّب ظنّي بك يا «حمزة»..كُنت أثق بك.

كانت الدّموع هي حروف لغتهم لساعات طويلة، ليس من السّهل أن ترحل قطعة من فؤادك إلى مملكة البلاغة! وليس من السّهل أن تعود أنت من هناك وتترك قطعة من فؤادك مع أحد سكانها هناك، وقد لا تراه مرّة أخرى!

انتفض «حمزة» عندما تذكّر شيئًا ما، صاح وهو يهرول تجاه مكتب جدّه باحثًا عن كتاب «مِسكة»:

-أين الكتاب الملعون؟ أين «القُلْقُطار»؟

وجد الكتاب على سطح المكتب فاستلّ خنجره وأمسكه بيديه الاثنتين ورفعهما عاليا وهوى بهما على الكتاب غارزًا خنجره فيه بقوّة وهو يقول:

-مُت أيّها الملعون...مُت للأبد.

انتفض كتاب «القُلْقُطار» وكأنّه جسد حيّ يختلج وينبض بالحياة، ثُمّ خرج من مكان طعنة الخنجر ظلّ لوجه قميء له عينان مسلوختان، تعالى صوت صراخ مهيب وكأنّها روح تنتزع من بين الصفحات، ازدادت كثافة الظلّ وامتلأت الغرفة به، ثُمّ دار في حلقات وبدأت صفحات الكتاب تدور بسرعة، وابتلع الكتاب كلّ شيء خرج منه، واصطفقت دفتاه ببعضهما بعنف شديد، وارتفع الكتاب في الهواء فجأة ثُمّ تبعثرت منه خيالات الأحرف العربية والنوبية وقد اختلطت ببعضها البعض، وتلاشى «القُلْقُطار» واختفى للأبد، قال «أنس» الذي كان يراقب «حمزة» وهو يقضي على هذا الكتاب الملعون:

-لم يُفلح حرق هذا الكتاب، ولا تمزيق غلافه وقص أوراقه، ولا بسكب المواد الحارقة فوقه ليذوب ويتآكل، جرّبت أنا وعمّك «يُوسف» كلّ شيء، وكنت أعود للبيت فأجده مرّة أخرى، وكأنّ هذا «القُلْقُطار» يتبعني!

قال «حمزة» وهو يعيد خنجره لحقيبته:

-تلك الكتب حيّة يا أبي، تتنفّس، تعيش، تشعر بنا!

ابتسم «أنس» عندما تذكّر «أبادول» وهو يقول له نفس الجملة، فقال بتأثّر:

-صدقت يا بنيّ، هكذا علّمنا «أبادول».

سأل «حمزة» عن «أبادول» وعلم أنّه في غيبوبة منذ رحليه، انتقلوا إلى المستشفى ظانين أنّ بعودة الحفيدين سيفيق الجدّ، كانوا يقفون في غرفته في حالة من الترقب والقلق، دلف الطبيب بمعطفه الأبيض، أعاد فحص مؤشرات الأجهزة الموصولة بجسد «أبادول» ودوّن بعض الملاحظات، سأله «حمزة» في قلق:

-هل هناك أمل؟

رفع الطبيب عويناته بطرف أصبعه وقال:

-لا تقطع الأمل أبدًا، المريض في الغرفة المجاورة كان في غيبوبة منذ سنوات بعد أن حاول الانتحار وألقى بنفسه من شرفة بيته بعد موت زوجته، فتمّ إنقاذه ليغرق في غيبوبته تلك، ولقد أفاق بالأمس فجأة!

سأله «خالد»:

-وكيف حال ذاكرته؟

قام الطبيب وهو يبتسم متوجها نحو باب الغرفة وقال:

-يتذكّر كلّ شيء، ورأسه يضج بالعلم، هذا المريض ثروة علمية عظيمة، فهو أستاذ جامعي، لطالما أخافنا هذا المريض باختفائه وظهوره وكأنّه يسير خلال نومه!

رفع الطبيب حاجبيه وقال:

-واحزروا ماذا؟ أفاق من غيبوبته ليكتب رواية! وسيسميها «أَمَانوس»

تسارعت دقّات قلب «حمزة» وسأله بتلهّف:

-ما اسمه؟

قال الطبيب قبل أن يغلق باب الغرفة عليهم بهدوء:

-«هشام»!

أطلت من عيونهم دهشة عارمة، وانطلق الحفيدان خلف الطبيب يتسابقان ودلفا الغرفة المجاورة، حيث كان السيّد «هشام» ينظر من النافذة وهو يبتسم، التفتَ تجاه الشّابين فور دخولهما، ثُمّ عقد حاجبيه وأخذ ينقل نظراته بين وجهيهما المتطابقين وقال بحيرة:

-من منكما «حمزة»؟

لم تطل حيرته، فقد كان وجه «حمزة» يحمل الكثير من الخربشات والجروح، وكذا ذراعاه وكفّاه، فأسرع يُعانقه، ثُمّ مدّ ذراعه لـ«خالد» أيضًا، ليجتمعا في حضنه.



25

النّهاية

مرّت أسابيع وشهور تحمل في لياليها الأخيرة دموع قلب يتفطّر حبًا وشوقًا لكلّه الآخر، وهناك في مملكة البلاغة، كانت «مُونارش تذهب لشاطئ البحر وتجلس طوال الليالي الثلاث الحنادس من كلّ شهر وتنتظر، كُسر قلبها مرّات ومرّات، وتوالت الشهور ودموعها تهمي وهي تحمل ركامًا من الأحزان، لم ينجح «سَاهور» في التحوّل مرّة أخرى لهيئته البشرية! لكنّها لم تيأس أبدًا وظلّت تنتظره.

وفي ليلة من الليالي الحنادس من شهر ما، وبينما كان الجميع في بيت الجدّ «أبادول» حيث أصرّوا على الانتقال لبيته بالفيّوم حتى يفيق

من غيبوبته ويعود لمنزله، كان «حمزة» يقف في الشرفة ويقلّب عينيه في السماء المدلهمّة باحثًا عن ضوء القمر فلم يجد له أثر، همس أخوه «خالد» في أذنه وهو يمرّ من خلف ظهره قائلًا:

-الليلة من الليالي الحنادس، لن يظهر ضوء الهلال..

-اشتقت إلى «أبادول».

-أخشى أن...

قاطعه «حمزة» قائلًا:

-أرجوك..لا تقلها...سيفيق بإذن اللّه.

-أرجو هذا.

ران عليهما صمت ثقيل، كانا ساكنين بجوار بعضهما يتأمّلان صفحة السّماء، وفجأة! شهق «حمزة» وشخصت عيناه للحظات قبل أن تعلو وجهه ابتسامة واسعة أدرك أخوه «خالد» معناها في الحال فوقف بجواره ينتظر البُشرى، كان هذا هو«الدّيسق» ينقل إليه مشهدًا جعل الدموع تسيل من عينيه، ها هو حوت عظيم يلقي بنفسه على الشاطئ في آخر ليلة من الليالي الحنادس من هذا الشهر العربي، وهاهو جسده الضخم ينتفض، وجلده ينشق، ها هو لحمه يذوب، وتلك عظامه تتفتت، والقلب الكبير ينبض ليظهر أخيرًا «سَاهور» ويستعيد هيئته البشرية، كان يزحف في حالة من الضعف، بدأ يسعل، ويُخرج ما بجوفه من ماء، ثُمّ يستقيم واقفًا على قدميه...

انطلق العجوز الذي يسكن هذا الكوخ الصغير القابع على الشاطىء وهرول نحوه ليمدّه بالثياب، ما زال «سَاهور» ضريرًا ويحتاج لمن يأخذ بيده، حاول «حمزة» الاتصال بالدّيسق بفكره كما فعل على شاطئ بحر «حندس» من قبل، أراد أن يدخل السّرور على صديقه «سَاهور» بشيء ما، فأدرك «الدّيسق» ما يرمي إليه رفيقه المُحارب، فانقطع عن اتصاله

بـ «حمزة»، ليقوم بتنفيذ ما طلبه منه، فقد كانت تلك نفحة من نفحات مملكة البلاغة ليطمئن قلب «حمزة» على صاحبه «سَاهور»!

وفي رحاب مملكة البلاغة، انطلق «الدّيسق» مُسرعًا ليقف على رأس «سَاهور»، وغطّى رأسه بريش جناحيه، ثم رفعهما وانتقل ليقف على كتفه، فأضاءت عينا «سَاهور» الرّائقتان كمحيط واسع لو رأيته لتمنيت البقاء فيه للأبد، سيلازمه الآن كما تلازم «الشّهباء» الملكة «الحوراء»، رأى «سَاهور» الآن حبيبته وزوجته «مُونارش» التي كانت في انتظاره، وضَمَّها فنَال من قَلبِها نَيّلاً، لتنهل معه من الحبّ نهلًا كما وعدها من قبل. التفت «حمزة» نحو أخيه «خالد» وقال بتأثّر:

-عاد «سَاهور»، رأيته بعيني «الدّيسق»

-توقّعت هذا، ولكن ...كيف يصل أثر «الدّيسق» إلى هنا؟

غضن «حمزة» جبينه وقال:

-يبدو أنّ «أبادول» لم يُخبرنا بكلّ شيء، ما زال يخبئ الكثير من الأسرار! سمعت «الرّمادي» يهمس له عند أوّل لقاء لنا في غرفة الأشباح، وفهمت أنّهما يلتقيان بطريقة ما ويريان بعضهما.

قال «خالد» :

-لم يُخبرنا أيضًا عن ساحرات «ماذريون».

-مملكة البلاغة عالم غريب وعجيب!

مضى «خالد» مبتعدًا عن أخيه، صاح «حمزة» مناديًا عليه:

-ألن تُخبرني في أيّ منهما كُنت تقبع يا صاح؟ طلبت منّي أن أحذر هذا بنفسي وقد احترت!

التفت «خالد» وقال وهو يضع يديه في جيبي بنطاله:

-تنقّلت بينهما أكثر من مرّة!

فغر «حمزة» فاه وقال:

–مـ..مـ..ماذا؟ متى..وأين...تعالَ هنا أخبرني!

أشرق وجه «خالد» بابتسامة وهو يقول:

–لا..لن أُخبرك.

عقد «حمزة» حاجبيه وهو يسير خلفه وسأله:

–هل أنت من رفعتني في بحر «حِندس» عندما كُنت أغرق؟

–نعم، وأنا من أخرجتك من بئر «دِرْواس».

ثُمّ التفت وقال ضاحكًا:

–وأنا من ضربتُ جبهتي بجبهتك في قرية «أُوركا».

انطلق «حمزة» راكضًا خلف أخيه يُطارده وهو يصيح:

–لقد أوجعتني!

تعالت ضحكاتهما، بينما كانت تتثاءب القطّة السوداء التي صارت تسكن حديقة «أبادول»، تلك القطّة تتلصص على أهل هذا البيت! تُري من يراقبهم بعينيها الخضراوين؟

وفي شارع آخر، حيث تفوح رائحة الرّطوبة، وقد اتشحت جدران البنايات باللون الرّمادي وصارت تنفح البرودة على ساكنيها، أضاءت الشموع في بيت «حسّان»، هذا الشخص غريب الأطوار الذي أعطى كتاب السّحر لـ«مسكة» منذ عشرين عام مضت، يبدو الآن أكبر عمرًا، وأكثر غموضًا، ماَ زال الوَشم الغريب على الجانب الأيمن من عنقه، وما زالت عيناه جاحظتين، وما زالت بشرته مشرّبة بصُفرةٍ مقيتة!

ارتعشت الظلال على جدار غرفته المكتظّة بالكتب، وعلى مائدة مستديرة يتوسّطها كتاب عجيب، نقش اسمه بشكل بارز على غلافه...«القَلْقَدِيس»! وكان هناك ست من الفتيات الفائقات الجمال،

والمُحبّات للقراءة، واقتناء الكتب، وشراء العتيق والمُستعمل منها قد انضممن إلى «حسّان»، كانت بينهن فتاة حسناء تعقص شعرها الأسود الطويل خلف رأسها وتجلس متأهّبة وتنظر إليهن بعينيها النجلاوين، جلسن بأعينهنّ الشّاخصة يتأمّلن غلاف الكتاب الذي يشبه الجلد البشري، داعبت أنوفهنّ رائحة العرق المنبعثة منه، وكأنّه كيان حيّ ينبض أمامهنّ، وكان هناك وشم غريب قد ظهر حديثًا أسفل أعناقهنّ، نطق «حسّان» بصوت مزدوج وردد بعض الطلاسم، ورددتها الفتيات خلفه في حالة من الخشوع، وكانت كلّ منهنّ تُمسك بيديّ الفتاتين الجالستين على جانبيها، يشبّكن أصابعهنّ في دائرة ليخلقن حالة من التواصل بينهنّ، وكانت أمّ «حسّان» التي بلغت السّبعين من عُمرها تدفع كرسيها المدولب بهوانٍ لتتلصص على الجلسة من ثقب الباب، سمعتهنّ يهتفن معًا في صوتٍ واحد:

«ماذريون»...«ماذريون»...«ماذريون»

فأجفلت من صوتهن وابتعدت عن الباب في هلع، توقفن عن الهتاف، فالتفتَ «حسّان» تجاه الفتاة الحسناء وسألها:

-من أين سنبدأ يا «رَيْهُقانة»؟

كانت قوّة زعيم الدّواسر الذي قُتل على أرض مملكة البلاغة قد انتقلت إليها، الآن هي حرّة بفضل «حمزة»، والآن هي أقوى من ذي قبل، واستطاعت الولوج إلى عالم آخر لتلحق بالفتى الذي عشقته، قالت بصوتها المخمليّ الفتّان وهي تحدّق في الكتاب أمامها:

-افعلوا ما شئتم، أمّا أنا فلا أريد إلّا «حمزة»!

تمت